حديـــث الإفــك

عَبَرَاتٌ وَعِبَرٌ

تأليف

إبراهيم بن عبد الرحمن الدميجي

عفا الله عنه وغفر له



مُقَدِّمَة

الحمد لله ذي الجلال والجمال والكمال، ذي الآلاءِ التي لا نحصي لها عدًّا، أسبغ علينا نعمَهُ ظاهرةً وباطنة، فما بنا من نعمةٍ فمنه وحده لا شريك له، فله الحمد كله ظاهرًا وباطنًا وأزلًا وسرمدًا، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، جلّ عن المثيل وعن الندّ وعن النظير، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله وصفيّه وخليله وكليمه، بلّغ حق البلاغ، وبشّر أجمل البشارات، وأنذر تمام الإنذار، السعيدُ من اتّبعه، والشقيّ من عصاه، ﷺ وبارك، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان. أما بعد:

فقد توقّف العلماء كثيرًا متأمّلين متدبّرين عظمة وجلالة العِبَرِ من قصة الإفك الهائلة، وما في ثناياها من الرحمات الإلهيه لنبي الله صلوات الله عليه وسلامه وبركاته، ولأهله وأصهاره من آل أبي بكر، وللأمة المرحومة من بعدهم.

إنّها الحادثة التي هزّت المجتمع الإسلامي النبوي، وأقلقت السادة، وقلقلت الكبار، وأنصعتْ طيب أهل اليقين، وضوّعت نَشْرَهم، وأشهرت فضلهم، وزلزلتْ إيمان من كان على حرفٍ، وحيّرت عقولًا وأدهشَت أفئدة! وأوهت أبنية بعض المتّقين،

وأوهنت قوّة بعض الفضلاء، وهدّت عزائم آحادٍ من الحُلماء، وزاغ فيها من زلّت به القدم إلى مراتع اللسان وسيء الظنون بأهل الإيمان، وثبّت الله أفئدة فئام من المؤمنين فأحسنوا الظن بعباد الرحمن، وأطلقوا على المفترين وحاملي الإفك سهام النكران، وعاتب الله تعالى المؤمنين الذين لم يلتزموا جانب الإحسان في ظنونهم تجاه الإخوان. وتولّى ربُّ العالمين ومالكُ الدنيا والدين، وجبارُ السماوات والأرَضين الدِّفاع عن الصِّدِّيقة أم المؤمنين، وعتاب من زل فيها من الصالحين، ولَعَنَ الذين يحبّون أن تشيع الفاحشة في المؤمنين من المُفترين والأفّاكين والمُرجفين، وجعلها سبحانه وبحمده آيةً شاهدةً للمؤمنين إلى يومٍ يقوم الأشهادُ ويلقى العبادُ رب العالمين.

رأيتُكِ ولْيَغْفِرْ لكِ اللهُ حُرَّةً ... مِنَ المُحْصَنَاتِ غَيرِ ذَاتِ غَوَائِلِ
حَصَانٌ رَزَانٌ مَا تُزَنُّ بِرِيبَةٍ ... وَتُصْبحُ غَرْثَى مِنْ لُحُومِ الغَوَافلِ
عَقِيلَةُ حَي مِنْ لُؤَي بن غَالِب ... كِرَامِ المَسَاعِي مَجْدُهُمْ غَيْرُ زَائِلِ
مُهَذَّبَةٌ قد طَيبَ الله خِيمَهَا ... وَطَهَّرَهَا مِنْ كُل سُوءٍ وَبَاطِلِ

وقد ذُكِرَت هذه القصة الجليلة المزلزلة في الصحاح والمسانيد بألفاظ متقاربة ومعانٍ متشابهة متوافقة، وخرّجها مُحَدِّثُ الإسلام وأميرُ المؤمنين في الحديث الإمامُ أبو عبد الله محمد ابن إسماعيل البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ في صحيحه في عدّة مواضع، ومن أجمعها قولُه رَحِمَهُ اللَّهُ

تعالى ورضي عنه[1]:

بَاب حَدِيثِ الْإِفْكِ

حَدَّثَنَا عبد الْعَزِيزِ بن عبد اللَّهِ، حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بن سَعْدٍ، عَنْ صَالِحٍ، عَنْ ابْنِ شِهَابٍ قَالَ: حَدَّثَنِي عُرْوَةُ بن الزُّبَيْرِ وَسَعِيدُ بن الْمُسَيَّبِ وَعَلْقَمَةُ بن وَقَّاصٍ وَعُبَيْدُ اللَّهِ بن عبد اللَّهِ بن عُتْبَةَ بن مَسْعُودٍ، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ حِينَ قَالَ لَهَا أَهْلُ الْإِفْكِ مَا قَالُوا[2]، وَكُلُّهُمْ حَدَّثَنِي طَائِفَةً مِنْ حَدِيثِهَا، وَبَعْضُهُمْ كَانَ

(١) انظر خبر الإفك بطوله على لسان أم المؤمنين الصدّيقة بنت الصدّيق رضوان الله عليها وعلى أبيها في البخاري (٥/١٩٨، ٢٠١) (٧/٣٣٣، ٣٣٥) (٨/٣٤٣، ٣٦٧) وانظر شرح الموضع الأخير من فتح الباري في تفسير سورة النور. وأخرجه مسلم (٣١٧٩، ١٧٣٠) والترمذي (٣١٧٩) وعبد الرزاق في المصنف (٩٧٤٨) وانظر: سيرة ابن هشام (٢/٢٩٧، ٣٠٧) البداية والنهاية لابن كثير (٣/٣٠٤، ٣١١) وتفسيره (٣/ ٢٦٨، ٢٧٢).

وهذا الحديث جدير بالإذاعة بين المسلمين، لأن تحته من العبرِ، وقرعِ غوافل القلوب، وترويحِ أرواح المبتلَين، وبثِّ أواصر حسن الظن بين عباد الرحمن ما لا يحوط به وصف.

(٢) قال السهيلي في قوله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ﴾ [النور: ١١]: هم =

أَوْعَى لِحَدِيثِهَا مِنْ بَعْضٍ، وَأَثْبَتَ لَهُ اقْتِصَاصًا، وَقَدْ وَعَيْتُ عَنْ كُلِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ الْحَدِيثَ الَّذِي حَدَّثَنِي عَنْ عَائِشَةَ، وَبَعْضُ حَدِيثِهِمْ يُصَدِّقُ بَعْضًا، وَإِنْ كَانَ بَعْضُهُمْ أَوْعَى لَهُ مِنْ بَعْضٍ[1] قَالُوا: قَالَتْ عَائِشَةُ:

= عبد الله ابن أبيّ، وحمنة بنت جحش، وعبد الله أبو أحمد أخوها، ومسطح، وحسان. وقيل: حسان لم يكن منهم. قلت: قد ثبت حدّه وتطهيره. وزاد النسفي: يزيد بن رفاعة. وفي صحيح مسلم: وكان الذين تكلموا: مسطح، وحمنة، وحسان، وأما المنافق عبد الله بن أبيّ فهو الذي كان يستوشيه ويجمعه، وهو الذي تولى كبره، وحمنة. ومعنى يستوشيه أي يستخرجه بالبحث والمسألة، ثم يفشيه ويشيعه ويحركه ولا يدعه يخمد، لإمعانه في عداوة رسول الله ﷺ، وانتهازه الفرص، وطلبه سبيلًا إلى الغميزة.

أما الإفك فقال النسفي: الإفك أبلغ ما يكون من الافتراء والكذب. وقيل: هو البهتان لا تشعر به حتى يفجأك، وأصله الأفك بالفتح مصدر قولك أفكه يأفكه أفكًا إذا قلبه وصرفه عن الشيء، ومنه قوله تعالى: ﴿أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا﴾ [الأحقاف: ٢٢] وقيل للكذب إفك لأنه مصروف عن الصدق.

(١) قال أبو عمر بن عبد البر رَحِمَهُ اللَّهُ: كان ابن شهاب ــ قلت: وهو الزهري ــ أكثرُ الناس بحثًا عن هذا الشأن ــ أي حديث رسول الله ﷺ ــ فكان ربّما اجتمع له في الحديث جماعة، فحدَّث به مرّة عنهم، ومرة عن أحدهم، ومرّة =

كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا أَرَادَ سَفَرًا أَقْرَعَ بَيْنَ أَزْوَاجِهِ(١)، فَأَيُّهُنَّ خَرَجَ

= عن بعضهم، على قدر نشاطه حين تحديثه. وربّما أدخلَ حديثَ بعضِهم في حديث بعض، كما صنع في حديث الإفك وغيره، وربما كسل فلم يُسند، وربما انشرح فوَصَلَ وأسند، على حسب ما تأتي به المذاكرة. فلذا اختلف عليه أصحابه اختلافًا كثيرًا. ويبين ذلك روايته حديث ذي اليدين، رواه عنه جماعة، فمرّة يذكر فيه واحدًا، ومرة اثنين، ومرّة جماعة، ومرة جماعة غيرها، ومرّة يصل، ومرة يقطع. شرح الزرقاني للموطأ (١/ ٢٨٢).

وفي عمدة القاري شرح صحيح البخاري: (٢٠/ ٢٩٥): وقال الزهري: وكلهم حدثني طائفة: أي بعضًا، وهذا قول جائز سائغ من غير كراهة، لأنه قد بيّن أن بعض الحديث عن بعضهم، وبعضه عن بعضهم، والأربعة الذين حدثوه أئمة حفاظ، من أجلة التابعين، فإذا ترددت اللفظة من هذا الحديث بين كونها عن هذا أو عن ذاك لم يضر، وجاز الاحتجاج بها، لأنهما ثقتان. وقد اتفق العلماء على أنه لو قال: حدثني زيد أو عمر وهما ثقتان معروفان بذلك عند المخاطب؛ جاز الاحتجاج بذلك الحديث.

وقوله: أوعى من بعض: أي أحفظ وأحسن إيرادًا وسردًا للحديث.

وقوله: اقتصاصًا: أي حفظًا، يقال: قصصت الشيء، إذا تتبعت أثره شيئًا بعد شيء، ومنه: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ [يوسف: ٣] ﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ﴾ [القصص: ١١] أي: اتبعي أثره.

(١) قال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هذا دليل لمالك والشافعي وأحمد وجماهير العلماء في =

سَهْمُهَا خَرَجَ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَعَهُ. قَالَتْ عَائِشَةُ: فَأَقْرَعَ بَيْنَنَا فِي غَزْوَةٍ غَزَاهَا[1] فَخَرَجَ فِيهَا سَهْمِي، فَخَرَجْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بَعْدَ مَا أُنْزِلَ الْحِجَابُ، فَكُنْتُ أُحْمَلُ فِي هَوْدَجِي[2].

= العمل بالقرعة في القسم بين الزوجات، وفي العتق، والوصايا، والقسمة ونحو ذلك. وقد جاءت فيها أحاديث كثيرة في الصحيح مشهورة. قال أبو عبيد: عمل بها ثلاثة من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين: يونس، وزكريا، ومحمد ﷺ. قال بن المنذر: استعمالها ــ أي القُرعة ــ كالإجماع، قال: ولا معنى لقول من ردها. شرح النووي على مسلم: (١٧/ ١٠٣).

(١) هي غزوة المُريسيع.

(٢) قال الحافظ: أي بعد ما نزل الأمر بالحجاب، والمراد: حجاب النساء عن رؤية الرجال لهن، وكن قبل ذلك لا يُمنعن. وهذا قالته كالتوطئة للسبب في كونها كانت مستترة في الهودج، حتى أفضى ذلك إلى تحميله وهي ليست فيه، وهم يظنون أنها فيه، بخلاف ما كان قبل الحجاب، فلعل النساء حينئذ كُن يركبن ظهور الرواحل بغير هوادج، أو يركبن الهوادج غير مستترات، فما كان يقع لها الذي يقع، بل كان يعرف الذي كان يخدم بعيرها إن كانت ركبت أم لا. الفتح: (٨/ ٤٥٥).

أما الهودج فهو: هو مركب من مراكب نساء العرب، عبارة عن محمل له قبّة تُستر بالأقمشة ونحوها، يوضع على ظهر البعير، تركبه النساء ليكون =

وَأُنْزَلُ فِيهِ، فَسِرْنَا حَتَّى إِذَا فَرَغَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ غَزْوَتِهِ تِلْكَ وَقَفَلَ، دَنَوْنَا مِنْ الْمَدِينَةِ قَافِلِينَ، آذَنَ لَيْلَةً بِالرَّحِيلِ[1]، فَقُمْتُ حِينَ آذَنُوا بِالرَّحِيلِ، فَمَشَيْتُ حَتَّى جَاوَزْتُ الْجَيْشَ، فَلَمَّا قَضَيْتُ شَأْنِي، أَقْبَلْتُ إِلَى رَحْلِي، فَلَمَسْتُ صَدْرِي فَإِذَا عِقْدٌ لِي مِنْ جَزْعِ ظَفَارِ[2] قَدْ

= أستر لهن عند السفر فوق البعير من العين والشمس والأذى. وفي رواية ابن إسحاق: فكنت إذا رحلوا بعيري جلستُ في هودجي، ثم يأخذون بأسفل الهودج، فيضعونه على ظهر البعير. وقيل إن الذي كان يرحل هودجها، ويقود بعيرها هو أبو مويهبة، ـ أو موهوبة ـ مولى رسول الله ﷺ، وراوي حديث مرضه ﷺ، وكان رجلا صالحًا.

(١) وقفل: أي رجع. وقولها: آذن ليلة: من الإيذان، ومن التأذين، قاله الكرماني. ويقال: آذن بالمد والتخفيف مثل قوله تعالى: ﴿فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ [الأنبياء: ١٠٩] .

(٢) جزع ظفار وروي أطفار: الجزع هنا: حجر منسوب لموضع باليمن يقال له: ظَفار . وتروى جِزْع وهو الخرز، ولا شكّ أن حمله عليه أولى، فما تصنع بقلادة الحجارة؟! ويمكن الجمع بالقول بأنها حجارة كريمة ولعلّها نوعٌ من العقيق. ويقال: جزع ظفاري. وقال ابن التين: ورد في بعض الروايات أن العقد الملتَمَس مقدار ثمنه اثني عشر درهمًا. والعِقْد: هو القلادة.

وانظر: شرح النووي على مسلم (١٧/ ١٠٤) عمدة القاري شرح صحيح البخاري للعيني (٢٠/ ٣٠٠) جامع الأصول في أحاديث =

انْقَطَعَ[1] فَرَجَعْتُ فَالْتَمَسْتُ عِقْدِي، فَحَبَسَنِي ابْتِغَاؤُهُ[2]، قَالَتْ: وَأَقْبَلَ الرَّهْطُ الَّذِينَ كَانُوا يُرَحِّلُونِي[3]، فَاحْتَمَلُوا هَوْدَجِي فَرَحَلُوهُ عَلَى بَعِيرِي الَّذِي كُنْتُ أَرْكَبُ عَلَيْهِ، وَهُمْ يَحْسِبُونَ أَنِّي فِيهِ، وَكَانَ النِّسَاءُ إِذْ ذَاكَ خِفَافًا لَمْ يَهْبُلْنَ[4]، وَلَمْ يَغْشَهُنَّ اللَّحْمُ، إِنَّمَا يَأْكُلْنَ الْعُلْقَةَ

= الرسول لمجد الدين ابن الجزري (٢/ ٢٧٢) الديباج على مسلم للسيوطي (٦/ ١٢٦).

(١) قلت: إذا أراد الله أمرًا هيّأ له أسبابه، وكم في هذا الأمر من لطيفة ربانية ومنحة رحمانية، فلله الحمد في الأولى والآخرة.

(٢) وفي رواية ابن إسحاق: فرجعت عَوْدِي على بدئي، إلى المكان الذي ذهبت إليه. وفي رواية الواقدي: وكنت أظن أن القوم لو لبثوا شهرًا لم يبعثوا بعيري، حتى أكون في هودجي.

(٣) يَرْحَلون ويُرَحِّلون: أي يجعلون الرَّحْلَ على البعير. رحلت البعير أي شددت عليه الرحل. وفي لفظ: «يرحلون لي» باللام، قال النووي: يرحلون بي بالباء، واللام أجود. وقال الكرماني: الرحل: المتاع. وقال بدر الديني العيني الحنفي: الرحل: المنزل والمسكن، يقال: انتهينا إلى رحالنا، أي إلى منازلنا. عمدة القاري شرح صحيح البخاري للعيني (٢٠/ ٣٠١).

(٤) لم يُهَبَّلن: وهذا الضبط أشهر عند النووي، أي: لم يكثر لحمهن من السمن فيثقلن، والمُهَبَل: الكثير اللحم، الثقيل الحركة من السِّمَن. وفي رواية =

مِنْ الطَّعَامِ[1]، فَلَمْ يَسْتَنْكِرْ الْقَوْمُ خِفَّةَ الْهَوْدَجِ حِينَ رَفَعُوهُ وَحَمَلُوهُ، وَكُنْتُ جَارِيَةً حَدِيثَةَ السِّنِّ، فَبَعَثُوا الْجَمَلَ فَسَارُوا[2]، وَوَجَدْتُ

= للبخاري: «لم يثقلن» وهو بمعناه. وانظر: جامع الأصول، لمجد الدين ابن الجزري (٢/ ٢٧٢) وقال السيوطي في الديباج: لم يُهْبَّلن: ضُبِطَ بضم الياء وسكون الهاء والباء المشددة أي: لم يثقلن باللحم والشحم.

وقال أبو عبيد القاسم بن سلام: «لم يُهَبِّلْهُنَّ اللحم»: أي لم يكثر عليهن، ولم يركب بعضه بعضًا حتى يُرهلهن؛ يقال منه: أصبح فلان مهبلًا، إذا كان مورم الوجه. غريب الحديث لابن سلام (٤/ ٣٣٥).

(١) قال العيني في عمدة القاري: ولم يغشهن اللحم: أي لم يركب عليهن اللحم، يعني لم يكن سمينات.

العُلقة: البُلْغة من الطعام، قدر ما يُمسك الرمق، تريد القليل. ويقال لها أيضا البُلغة، كأنه الذي يمسك الرمق وتعلق النفس للازدياد منه، أي تشوّقها إليه. وقيل ما يمسك به المرء نفسه من الأكل وقيل هو ما يأكله من الغداة. وقال صاحب العين: العلقة: ما فيه بلغة من الطعام إلى وقت الغداة، وأصلُ العلقة شجر يبقى في الشتاء يعلق به الإبل، أي تجتزىء به حتى يدرك الربيع، ــ قلت: ولعلّها العُلّيْقَة، ويزعم اليهود أنها الشجرة التي كلّم الله تعالى منها موسى عليه السلام ـ .

(٢) قال الحافظ: ويستفاد من ذلك أن الذين كانوا يرحلون بعيرها كانوا في غاية الأدب معها، والمبالغة في ترك التنقيب عمّا في الهودج، بحيث أنّها لم =

عِقْدِي بَعْدَ مَا اسْتَمَرَّ الْجَيْشُ، فَجِئْتُ مَنَازِلَهُمْ وَلَيْسَ بِهَا مِنْهُمْ دَاعٍ وَلَا مُجِيبٌ![1] فتيَمَّمْتُ[2] مَنْزِلِي الَّذِي كُنْتُ بِهِ، وَظَنَنْتُ أَنَّهُمْ سَيَفْقِدُونِي فَيَرْجِعُونَ إِلَيَّ[3]، فَبَيْنَا أَنَا جَالِسَةٌ فِي مَنْزِلِي غَلَبَتْنِي عَيْنِي

= تكن فيه، وهم يظنون أنها فيه، وكأنهم جوزوا أنها نائمة.

قولها: وكنت جارية حديثه السن. هو كما قالت، لأنها أُدخلت على النبي ﷺ بعد الهجرة في شوال، ولها تسع سنين، وأكثر ما قيل في المريسيع أنها كانت في شعبان سنة ست، فتكون لم تكمل خمس عشرة. فإن كانت المريسيع قبل ذلك فتكون أصغر من ذلك. ويحتمل أن تكون أشارت بذلك إلى بيان عُذرها فيما فعلته من الحرص على العقد الذي انقطع، ومن استقلالها بالتفتيش عليه في تلك الحال، وترك إعلام أهلها بذلك، وذلك لصغر سنّها، وعدم تجاربها للأمور، بخلاف ما لو كانت ليست صغيرة؛ لكانت تتفطّن لعاقبة ذلك، وقد وقع لها بعد ذلك في ضياع العقد أيضًا أنها أعلمت النبي ﷺ بأمره، فأقام بالناس على غير ماء، حتى وجدته، ونزلت آية التيمم بسبب ذلك، فظهر تفاوت حال من جرب الشيء ومن لم يجربه. الفتح: (٨/ ٤٦١).

(١) داع ولا مجيب: أي ليس بها أحد لا من يدعو ، ولا من يرد جوابًا.

(٢) أي: قصدت، مِنْ أَمَّ، ومنه ﴿ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ﴾ [المائدة: ٢].

(٣) وهذا من وافر عقلها ورجاحة فكرها، وهكذا ينبغي لمن فقد شيئا أن يرجع بفكره القهقرى، إلى الحد الذي يتحقّق وجوده، ثم يأخذ من هناك =

فَنِمْتُ[1]، وَكَانَ صَفْوَانُ بن الْمُعَطَّلِ السُّلَمِيُّ ثُمَّ الذَّكْوَانِيُّ مِنْ وَرَاءِ الْجَيْشِ[2]،

= في التنقيب عليه. ذكره الحافظ وقال: وأرادت بمن يفقدها من هو منها بسبب كزوجها أو أبيها، والغالب الأول، لأنه كان من شأنه ﷺ أن يُساير بعيرها، ويتحدّث معها، فكأن ذلك لم يتّفق في تلك الليلة، ولما لم يتّفق ما توقّعته من رجوعهم إليها ساق الله إليها من حملها بغير حول منها ولا قوة.

(١) قال الحافظ: يحتمل أن يكون سبب النوم شدّة الغمّ الذي حصل لها في تلك الحالة، ومن شأن الغمّ ـ وهو وقوع ما يكره ـ غلبة النوم، بخلاف الهمّ ـ وهو توقع ما يكره ـ فإنه يقتضي السهر. أو لِمَا وَقَعَ من برْد السحر لها، مع رطوبة بدنها، وصغر سنها. وعند بن إسحاق: فتلفّفت بجلبابي، ثم اضطجعت في مكاني. أو أن الله سبحانه وتعالى لطف بها، فألقى عليها النوم، لتستريح من وحشة الانفراد في البرية بالليل.

(٢) وراء الجيش: لينظر من سقط له شيء يأتيه به. وكان صفوان على السّاقة ـ وهي مؤخرة الجيش ـ يلتقط ما يسقط من متاع الجيش، ليردّه إليهم. وقيل: إنه كان ثقيل النوم، لا يستيقظ حتى يرتحل الناس، وقد جاء في سنن أبي داود أن امرأته شكت ذلك منه لرسول الله ﷺ فقال صفوان: إنا أهلُ بيت نوم عُرِفَ لنا ذلك، لا نكاد نستيقظ حتى تطلع الشمس. وذكر القاضي أبو بكر بن العربي أن صفوان كان حصورًا، لا يأتي النساء. وأول مشاهده المريسيع، وقيل الخندق وما بعدها. وكان شجاعًا، خيرًا =

فَأَصْبَحَ عِنْدَ مَنْزِلِي، فَرَأَى سَوَادَ[1] إِنْسَانٍ نَائِمٍ، فَعَرَفَنِي حِينَ رَآنِي، وَكَانَ رَآنِي قَبْلَ الْحِجَابِ، فَاسْتَيْقَظْتُ بِاسْتِرْجَاعِهِ[2] حِينَ عَرَفَنِي، فَخَمَّرْتُ[3] وَجْهِي بِجِلْبَابِي[4]، وَوَاللَّهِ مَا تَكَلَّمْنَا بِكَلِمَةٍ، وَلَا سَمِعْتُ

= شاعرًا. وعن ابن إسحاق: قُتل في غزوة أرمينية شهيدًا سنة تسع عشرة، واندقّتْ رجله يوم قُتِلَ فطاعَنَ بها وهي منكسرة حتى مات! وقيل: توفي في خلافة معاوية سنة ثمان وخمسين.

ولما ضَرَبَ حسانَ بن ثابت بسيفه لما هجاه لم يقتصّه منه رسول الله ﷺ بل استوهب من حسان جنايته، فوهبها لرسول الله ﷺ، فعوّضه منها حائطًا من نخيل وسيرين أخت مارية. وقيل: إن إعطاء رسول الله ﷺ لحسان سيرين إنما كان لذبّه عن رسول الله ﷺ. عمدة القاري (٢٠/ ٣٠٣).

(١) سواد إنسان أي شخصه الذي لم تتبين ملامحه.

(٢) أي بقوله: إنا لله وإنا إليه راجعون. قال الحافظ: وكأنه شقّ عليه ما جرى لعائشة، أو خشي أن يقع ما وقع، أو أنه اكتفى بالاسترجاع رافعًا به صوته عن مخاطبتها بكلام آخر، صيانةً لها عن المخاطبة في الجملة، وقد كان عمر يستعمل التكبير عند إرادة الإيقاظ. وفيه دلالة على فطنة صفوان وحسن أدبه.

(٣) فخمرت أي غطيت. ومنه سميت الخمر لتغطيتها العقل.

واحذر الخمرة لا تشربها ... كيف يسعى لجنون من عقل!

(٤) بجلبابي: الجلباب: ما يتغطى به الإنسان من ثوب أو إزار.

مِنْهُ كَلِمَةً غَيْرَ اسْتِرْجَاعِهِ[١] وَهَوَى[٢] حتَّى أَنَاخَ رَاحِلَتَهُ، فَوَطِئَ عَلَى يَدِهَا[٣]، فَقُمْتُ إِلَيْهَا فَرَكِبْتُهَا، فَانْطَلَقَ يَقُودُ بِي الرَّاحِلَةَ، حَتَّى أَتَيْنَا الْجَيْشَ مُوغِرِينَ فِي نَحْرِ الظَّهِيرَةِ[٤] وَهُمْ نُزُولٌ، قَالَتْ: فَهَلَكَ مَنْ هَلَكَ، وَكَانَ الَّذِي تَوَلَّى كِبْرَ الْإِفْكِ[٥] عبد اللَّهِ بن أُبَيٍّ ابْنُ سَلُولَ.

قَالَ عُرْوَةُ: أُخْبِرْتُ أَنَّهُ كَانَ يُشَاعُ وَيُتَحَدَّثُ بِهِ عِنْدَهُ فَيُقِرُّهُ

(١) ظاهر الكلام أنه لم يُسَلِّم عليها لعظيم صيانه وجليل عفافه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وعنه، وفيه القسم للتأكيد ولو لم يُطلب.

(٢) هوى: هوى الإنسان: إذا سقط من علوّ، والمراد: أنه نزل من بعيره عجلاً.

(٣) أي فوطئ صفوان يد الراحلة ليسهل الركوب عليها فلا يكون احتياج إلى مساعدة.

(٤) قال النووي: المُوغِر: النازل في وقت الوَغْرَة، وهي شدة الحر. ونحر الظهيرة: وقت القائلة، وشدة الحر. وقيل: نحر كل شيء أوله. قال العيني: شدة الحر، والنحر الأول، والصدر، وأوائل الشهر تُسمى النحور. وقال الداودي: الظهيرة: نصفُ النهار عند أول الفيء. وقال ابن الجزري: ومنه يقال: وغر صدره يوغر: إذا اغتاظ وحَمِيَ، وأوغره غيره، فيكون قولها: موغرين أي: داخلين في شدة الحر. وقال الخطابي: نحر الظهيرة: أول القائلة.

(٥) كبر الإفك: معظمه.

وَيَسْتَمِعُهُ وَيَسْتَوْشِيهِ[1]، وَقَالَ عُرْوَةُ أَيْضًا: لَمْ يُسَمَّ مِنْ أَهْلِ الْإِفْكِ أَيْضًا إِلَّا حَسَّانُ بن ثَابِتٍ، وَمِسْطَحُ بن أُثَاثَةَ، وَحَمْنَةُ بِنْتُ جَحْشٍ فِي نَاسٍ آخَرِينَ لَا عِلْمَ لِي بِهِمْ، غَيْرَ أَنَّهُمْ عُصْبَةٌ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى[2]، وَإِنَّ

---

(١) يستوشيه: أي يستخرجه بالبحث عنه والاستقصاء، كما يستوشي الرجل فرسه: إذا ضرب جنبيه بعقبيه أو بسوطه ليجري، يقال: أوشى فرسه، واستوشاه.

(٢) قال البقاعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: (٥/ ٢٤١): ذكر الله أنهم عصبة. وقد ذكروا حسان منهم، وأنا والله لا أظن به أصلاً وإن جاءت تسميته في الصحيح، فقد يخطى الثقة لأسباب لا تحصى، كما يعرف ذلك من مارس نقد الأخبار، وكيف يظن ذلك ولا شغل له إلا مدح النبي ﷺ، والمدافعة عنه والذم لأعدائه، وقد شهد رسول الله ﷺ أن جبريل عليه السلام معه، فأقسم بالله أن الذي أيده بجبريل ما كان ليكله إلى نفسه في مثل هذه الواقعة، وقد سبقني إلى الذب عنه الحافظ عماد الدين ابن كثير الدمشقي رَحِمَهُ ٱللَّهُ. وكيف لا ينافح عنه وهو القائل:

فإن أبي ووالدَه وعِرضي ... لعرض محمدٍ منكم وقاءُ

وهو القائل يمدح عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، ويكذب من نقل عنه ذلك:

فإن كان ما بُلِّغْتِ عنِّي قلتُهُ ... فلا رفعتْ سوطي إليّ أناملي

وكيف وودي ما حييت ونصرتي ... لآل رسول الله زين المحافل =

= وقال الحافظ أبو عمر بن عبد البر في الاستيعاب: وأنكر قوم أن يكون حسان خاض في الإفك، وجلد فيه. ورووا عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنها برأته من ذلك .
قلت: أما جلده فثابت، وكذلك اتهام عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا له بذلك، وضرب صفوان له بالسيف، وليس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بمعصوم، وتأييد الروح القدس له ليس بوارد هنا، لأنه إنما دُعي بتأييده في هجاء الكفار، حتى ورد أن جبريل قد أيده بسبعين بيتًا من أبيات الشعر المصمية للكفرة، وعلى كُلٍّ فالحدّ كفّارة، والتوبة كفارة، وأقوى ما يمكن أن تقاوم به روايات الإثبات هي نفيه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ما قيل عنه وإنكاره، بل وإرسال ذلك في أبيات سائرة، مشفوعة بدعاء على نفسه إن كان كاذبًا، فلعلّه ـــ وهذا الظن الحسن به وبأصحاب رسول الله ﷺ ـ قد شُهِد عليه زورًا، أو فُهم منه ما لم يقصده فجلد مع غيره، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأرضاه فهو شاعر الإسلام بلا مدافع.
وفي السيرة الحلبيّة: ولم يُحَدّ الخبيث عبد الله بن أبيّ بن سلول؛ لأن الحد كفارة، وليس من أهلها. وقيل: لأنه لم تقم عليه البينة بذلك، بخلاف أولئك، وقيل: لأنه كان لا يأتي بذلك على أنه من عنده، بل على لسان غيره.
وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ما زنت ـ وفي لفظ ـ لم تبغ امرأة نبيّ قطّ. وأما قوله تعالى في امرأة نوح وامرأة لوط: ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ فالمراد: آذتاهما، قالت امرأة نوح عليه السلام في حقه: إنه المجنون، وامرأة لـــوط عليه =

= السلام دلت على أضيافه. قلت: ولعلّ الخيانة في الآية هي خيانة الدين، وذلك بالكفر بالله ورسله.
وقيل: إنما جاز أن تكون امرأة النبي كافرة كامرأة نوح ولوط عليهما السلام، ولم يجز أن تكون فاجرة أي زانية؛ لأن النبيّ مبعوثٌ إلى الكفار ليدعوهم، فيجب أن لا يكون معه منقص ينفرهم عنه، والكفر غير منقص عندهم، وأما الفجور فمن أعظم النقصان.
وفي الخصائص الصغرى: ومن قذف أزواجه ﷺ فلا توبة له البتة، كما قال ابن عباس وغيره ـ أي لا تقبل ظاهرًا وإن قبلها الله بينه وبين عبده، وهذا فرعٌ عن سبّ الرسول ﷺ فإن توبته ظاهرًا لا تقبل على المشهور، كما حرّره شيخ الإسلام في الصارم المسلول ــ ويُقتل، كما نقله القاضي عياض وغيره، وقيل: يختص القتل بمن قذف عائشة، ويحد في غيرها حدين. قلت: وروي نحوه عن ابن عمر، وفي رواية ضعيفة أن ابن أبيّ جُلِد مئة وستين.
وقد وقع أن الحسن بن يزيد الراعي من أهل طبرستان وكان من العظماء الزهاد الآمرين بالمعروف، وكان يرسل في كل سنة إلى بغداد عشرين ألف دينار تفرّق على أولاد الصحابة، فحضر عنده رجل من أشياع العلويين فذكر عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بالقبيح، فقال الحسن لغلامه: يا غلام، اضرب عنق هذا، فنهض إليه العلويون وقالوا: هذا رجل من شيعتنا، فقال: معاذَ الله، هذا طعن على رسول الله، قال الله تعالى: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ۚ﴾ =

كِبْرَ ذَلِكَ يُقَالُ لَهُ عبد اللَّهِ بن أُبَيٍّ ابْنُ سَلُولَ. قَالَ عُرْوَةُ: كَانَتْ عَائِشَةُ تَكْرَهُ أَنْ يُسَبَّ عِنْدَهَا حَسَّانُ، وَتَقُولُ: إِنَّهُ الَّذِي قَالَ فَإِنَّ أَبِي وَوَالِدَهُ وَعِرْضِي لِعِرْضِ مُحَمَّدٍ مِنْكُمْ وِقَاءُ ـ.

قَالَتْ عَائِشَةُ: فَقَدِمْنَا الْمَدِينَةَ فَاشْتَكَيْتُ حِينَ قَدِمْتُ شَهْرًا[1] وَالنَّاسُ يُفِيضُونَ[2] فِي قَوْلِ أَصْحَابِ الْإِفْكِ، لَا أَشْعُرُ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، وَهُوَ يَرِيبُنِي فِي وَجَعِي أَنِّي لَا أَعْرِفُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ اللُّطْفَ الَّذِي كُنْتُ أَرَى مِنْهُ حِينَ أَشْتَكِي، إِنَّمَا يَدْخُلُ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَيُسَلِّمُ ثُمَّ يَقُولُ: «**كَيْفَ تِيكُمْ؟**»[3] ثُمَّ يَنْصَرِفُ، فَذَلِكَ يَرِيبُنِي[4] وَلَا أَشْعُرُ

= فإن كانت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا خبيثة فإن زوجها يكون خبيثًا وحاشاه ﷺ من ذلك، بل هو الطيب الطاهر، وهي الطيبة الطاهرة المبرأة من السماء، يا غلام اضرب عنق هذا الكافر، فضرب عنقه. باختصار عن السيرة الحلبية: (٢/ ٦٢٥ ـ ٦٢٧).

(١) وهذا من رحمة الله بها إذ لم تسمع قَالَةَ الناس لانشغالها عنهم بمرضها.

(٢) يفيضون: الإفاضة في الحديث: التحدث به، ونشره، وإشهاره، والخوض فيه بين الناس. يقال: أفاض القومُ في الحديث: إذا اندفعوا فيه يخوضون، وهو من قوله: ﴿لَمَسَّكُمْ فِي مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٤].

(٣) تيكم: إشارة إلى المؤنث كـ«ذاكم» في المذكر.

(٤) يَريب: من الرّيب والريبة وهي الشك. ووردت بفتح الياء وهي أفصح =

بِالشَّرِّ، حَتَّى خَرَجْتُ حِينَ نَقَهْتُ[1]، فَخَرَجْتُ مَعَ أُمِّ مِسْطَحٍ[2] قِبَلَ الْمَنَاصِعِ[3]، وَكَانَ مُتَبَرَّزَنَا، وَكُنَّا لَا نَخْرُجُ إِلَّا لَيْلًا إِلَى لَيْلٍ، وَذَلِكَ قَبْلَ

= كما في حديث: **«دع ما يَريبك إلى ما لا يَريبك»** (أحمد: ٢٢٣٤) (البيهقي في السنن: ٢٠٨٤٠) (الترمذي: ٢٥١٨ وصححه) وهو ما استعملته الصديقة في كلامها، وتُروى بالضم وهي صحيحة، وانظر: تاج العروس من جواهر القاموس لمحمد الحسيني (٢/٥٤٩) وهو كتاب حافل جامع كبير.

قال النووي: يَريبني: بفتح أوله وضمّه، يقال: رابه وأرابه، اذا أوهمه وشكّكه. واللُّطف: هو البر والرفق.

(١) نقهت: بفتح القاف وكسرها، والناقِهُ: الذي أفاق من المرض، وبرأ منه، وهو قريب عهد به، لم يتراجع إليه كمال صحته. وجمع الناقِهِ نُقَّه، ويقال: أنقهه الله.

(٢) أم مِسطح: اسمها سلمى، مشهورة بكنيتها. ويقال: اسمها ريطة. ومسطح لقب، واسمه عامر، وقيل: عوف. قال ابن سعد: أسلمت أم مسطح، فحسن إسلامها، وكانت من أشدّ الناس على مسطح حين تكلّم مع أهل الإفك. ترجمتها في: الإصابة ٨/٣٠٢ ـ ٣٠٣).

(٣) المناصع: المواضع الخالية، تُقضى فيها الحاجة، من الغائط والبول، وأصله: مكان فسيح خارج البيوت، واحدها: منصع. وفي الديباج: المناصع مواضع خارج المدينة، كانوا يتبرزون فيها.

أَنْ نَتَّخِذَ الْكُنُفَ[(١)] قَرِيبًا مِنْ بُيُوتِنَا. قَالَتْ: وَأَمْرُنَا أَمْرُ الْعَرَبِ الْأُوَلِ فِي الْبَرِّيَّةِ قِبَلَ الْغَائِطِ، وَكُنَّا نَتَأَذَّى بِالْكُنُفِ أَنْ نَتَّخِذَهَا عِنْدَ بُيُوتِنَا.

قَالَتْ: فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَأُمُّ مِسْطَحٍ - وَهِيَ ابْنَةُ أَبِي رُهْمِ بن الْمُطَّلِبِ بن عبد مَنَافٍ، وَأُمُّهَا بِنْتُ صَخْرِ بن عَامِرٍ خَالَةُ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ، وَابْنُهَا مِسْطَحُ بن أُثَاثَةَ بن عَبَّادِ بن الْمُطَّلِبِ ـ فَأَقْبَلْتُ أَنَا وَأُمُّ مِسْطَحٍ قِبَلَ بَيْتِي حِينَ فَرَغْنَا مِنْ شَأْنِنَا، فَعَثَرَتْ أُمُّ مِسْطَحٍ فِي مِرْطِهَا[(٢)] فَقَالَتْ:

---

(١) الكنيف: موضع قضاء الحاجة. والجمع كُنُف. ومن هنا قيل للوعاء الذي يحرز فيه الشيء: كنف، كقول عمر في ابن مسعود: كُنيفٌ مُلئ علمًا. ويقال للبناء الساتر لما وراءه: كنيف. قال أهل اللغة: الكنيف الساتر مطلقًا، وسُمّي به موضع الغائط لأنهم يستترون به.
قولها: وأمرنا أمر العرب الأول: تعني في التبرّز خارج المدينة. وقولها: التنزه: أي طلب النزاهة بالخروج إلى الصحراء. قال الخطابي: والمتبرّز: المكان الذي تُقضى فيه حاجة الإنسان، والبراز أيضًا اسم ذلك المكان، وبها سُمِّي الحدثُ برازًا، كما يسمّى الحدث بالغائط، وهو المطمئن من الأرض. ـ قلت: وهذا من باب تسمية الشيء بمكانه كناية وحياء ـ قال: والتنزه: البعد عن البيوت، وكانوا يبعدون عنها عند حاجة الإنسان. شرح صحيح البخاري لابن بطال (٨/ ٤٣).

(٢) مرطها: المرط كساء من صوف، أو خزّ، يؤتزر به، وجمعه: مروط.

تَعِسَ مِسْطَحٌ![1] فَقُلْتُ: لَهَا بِئْسَ مَا قُلْتِ، أَتَسُبِّينَ رَجُلًا شَهِدَ بَدْرًا! فَقَالَتْ: أَيْ هَنْتَاهْ[2]، وَلَمْ تَسْمَعِي مَا قَالَ؟ قَالَتْ: وَقُلْتُ: مَا قَالَ؟

(١) تعس الإنسان: أي عثر. ويقال في الدعاء على الإنسان: تعس فلان، أي: سقط لوجهه. ومنه حديث: «**تعس عبد الدينار..**» فقولها: تعس مسطح أي كُبَّ لوجهه، أو هلك.

(٢) قال الحافظ: قال أبو محمد بن أبي جمرة: يحتمل أن يكون قول أم مسطح هذا عمدًا، لتتوصل إلى إخبار عائشة بما قيل فيها وهي غافلة، ويحتمل أن يكون اتفاقا أجراه الله على لسانها، لتستيقظ عائشة من غفلتها عما قيل فيها.

وقولها: هنتاه: أي حرف نداء للبعيد، وقد يستعمل للقريب حيث ينزل منه منزل البعيد. والنكتة فيه هنا: أن أم مسطح نسبت عائشة إلى الغفلة عما قيل فيها، لإنكارها سبّ مسطح، فخاطبتها خطاب البعيد. الفتح: (٨/ ٤٦٧) وقال النووي: وفي رواية: يا هنتاه. قال أهل اللغة: هذه اللفظة تختصّ بالنداء، ومعناها: يا هذه. وقيل: يا امرأة، وقيل: يا بلهاء، كأنها نُسِبتْ إلى قلة المعرفة بمكائد الناس وشرورهم. ويقال في التثنية: هنتان، وفي الجمع: هنات وهنوات.

وفي المذكر: هن، وهنان، وهنون، ولك أن تُلحقها الهاء لبيان الحركة فتقول: يا هنه، وأن تشبع الحركة فتصير ألفا فتقول: يا هناه، ولك ضمُّ الهاء فتقول: يا هناه أقبل. شرح النووي على مسلم (١٧/ ١٠٧). =

فَأَخْبَرَتْنِي بِقَوْلِ أَهْلِ الْإِفْكِ، قَالَتْ: فَازْدَدْتُ مَرَضًا عَلَى مَرَضِي[(١)]، فَلَمَّا رَجَعْتُ إِلَى بَيْتِي دَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَسَلَّمَ، ثُمَّ قَالَ: «**كَيْفَ تِيكُمْ؟**» فَقُلْتُ لَهُ: أَتَأْذَنُ لِي أَنْ آتِيَ أَبَوَيَّ؟ قَالَتْ: وَأُرِيدُ أَنْ أَسْتَيْقِنَ الْخَبَرَ مِنْ قِبَلِهِمَا، قَالَتْ: فَأَذِنَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ. فَقُلْتُ لِأُمِّي: يَا أُمَّتَاهُ، مَاذَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ؟ قَالَتْ: يَا بُنَيَّةُ، هَوِّنِي عَلَيْكِ، فَوَاللَّهِ لَقَلَّمَا كَانَتْ امْرَأَةٌ قَطُّ وَضِيئَةً[(٢)] عِنْدَ رَجُلٍ يُحِبُّهَا لَهَا ضَرَائِرُ، إِلَّا كَثَّرْنَ عَلَيْهَا[(٣)]. قَالَتْ:

= قلت: ولغة العامة في نجد: هَنْ للمفرد المذكّر، وهَنَه للمفردة المؤنثة، وكما ترى لها أصل صحيح.

(١) قال الحافظ: وعند الطبراني بإسناد صحيح، عن أيوب عن ابن أبي مليكة عن عائشة قالت: لما بلغني ما تكلموا به؛ هممتُ أن آتي قليبًا فأطرح نفسي فيه. وأخرجه أبو عوانة أيضًا. الفتح: (٨/ ٤٦٧).

(٢) وضيئة: الوضاءة: الحسن، ووضيئة: فعيلة بمعنى: فاعلة. وقال النووي: وفي نسخة ابن ماهان حظيّة، من الحظوة ، وهي الوجاهة، يقال حظيت المرأة عند زوجها: أي سعدت به، ودنت من قلبه، وأحبّها.

(٣) ضرائر: جمع ضُرَّة، وزوجات الرجل ضرائر؛ لأن كل واحدة تتضرر بالأخرى بالغيرة والقَسْمِ.
قال الحافظ: وفي هذا الكلام من فطنة أمها، وحسن تأتّيها في تربيتها ما لا مزيد عليه، فإنّها علمت أن ذلك يعظم عليها، فهوّنت عليها الأمر بإعلامها بأنها لم تنفرد بذلك، لأن المرء يتأسى بغيره فيما يقع له، وأدمجت =

فَقُلْتُ: سُبْحَانَ اللَّهِ[1]، أَوَلَقَدْ تَحَدَّثَ النَّاسُ بِهَذَا؟! قَالَتْ: فَبَكَيْتُ تِلْكَ اللَّيْلَةَ حَتَّى أَصْبَحْتُ لَا يَرْقَأُ لِي دَمْعٌ، وَلَا أَكْتَحِلُ بِنَوْمٍ![2] ثُمَّ أَصْبَحْتُ أَبْكِي.

قَالَتْ: وَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلِيَّ بن أَبِي طَالِبٍ وَأُسَامَةَ بن زَيْدٍ حِينَ اسْتَلْبَثَ الْوَحْيُ، يَسْأَلُهُمَا وَيَسْتَشِيرُهُمَا فِي فِرَاقِ أَهْلِهِ، قَالَتْ: فَأَمَّا أُسَامَةُ، فَأَشَارَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِالَّذِي يَعْلَمُ مِنْ بَرَاءَةِ أَهْلِهِ،

= في ذلك ما تُطَيِّبُ به خاطرها من أنها فائقة في الجمال والحظوة، وذلك مما يعجب المرأة أن توصف به، مع ما فيه من الإشارة إلى ما وقع من حمنة بنت جحش، وأن الحامل لها على ذلك كون عائشة ضرة أختها زينب بنت جحش، وعرف من هذا أن الاستثناء في قولها: «إلا أكثرن عليها» متّصل، لأنها لم تقصد قصتها بعينها، بل ذكرت شأن الضرائر، وأما ضرائرها هي فإنّهن وإن كن لم يصدر منهن في حقها شيء مما يصدر من الضرائر، لكن لم يعدم ذلك ممن هو منهن بسبيل كما وقع من حمنة، لأن ورع أختها منعها من القول في عائشة، كما منع بقية أمهات المؤمنين، وإنما اختصت زينب بالذكر، لأنها التي كانت تضاهي عائشة في المنزلة. الفتح (٨/ ٤٦٨).

(١) استغاثت بالله متعجبة من وقوع مثل ذلك في حقّها، مع براءتها المحقّقة عندها، ومنزهة ربها أن يختار لنبيه الطيّب غير الطيّبة.

(٢) قولها: لا يرقأ: لا ينقطع. ولا أكتحل بنوم: أي لا أنام.

وَبِالَّذِي يَعْلَمُ لَهُمْ فِي نَفْسِهِ[1]، فَقَالَ أُسَامَةُ: أَهْلَكَ[2]، وَلَا نَعْلَمُ إِلَّا خَيْرًا. وَأَمَّا عَلِيٌّ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَمْ يُضَيِّقْ اللَّهُ عَلَيْكَ، وَالنِّسَاءُ سِوَاهَا كَثِيرٌ[3]، وَسَلْ الْجَارِيَةَ تَصْدُقْكَ. قَالَتْ: فَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ

---

(١) يعلم لهم: أي من الودّ.

(٢) أهلك: أي الزم أهلك. وإطلاق الأهل على الزوجة شائع. والجمع هنا لتعظيم أمرها.

(٣) آثر عليٌّ رضي الله عنه جانب النبي ﷺ لمّا رآه مغتمًا، مع ما يعلم من شدة غيرته ﷺ، فرأى أنه إذا فارقها سكن ما عنده، ثم راجعها عند تحقّق براءتها، ولم يُرد بقوله ذلك عيبًا ولا نقصًا. قاله ابن أبي جمرة وغيره. عن الفجر الساطع (٣/٩٧).

قال الحافظ: ويستفاد من مشورة علي ارتكاب أخفّ الضررين لذهاب أشدهما. وقال الثوري: رأى ذلك هو المصلحة في حقّ النبي ﷺ، واعتقد ذلك لما رأى من انزعاجه، فبذل جهده في النصيحة لإرادة راحة خاطره ﷺ. وقال الشيخ أبو محمد بن أبي جمرة: لم يجزم علي بالإشارة بفراقها، لأنه عقّب ذلك بقوله: وسل الجارية تصدقْك، ففوّض الأمر في ذلك إلى نظر النبي ﷺ، فكأنه قال: إن أردت تعجيلَ الراحة ففارقها، وأن أردت خلاف ذلك فابحث عن حقيقة الأمر إلى أن تطّلع على براءتها، لأنه كان يتحقّق أن بريرة لا تخبره إلا بما علمته، وهي لم تعلم من عائشة إلا البراءة المحضة. =

= والعلّة في اختصاص علي وأسامة بالمشاورة: أن عليًّا كان عنده كالولد، لأنّه ربّاهُ من حال صغره، ثم لم يفارقه، بل وازداد اتصاله بتزويج فاطمة، فلذلك كان مخصوصًا بالمشاورة فيما يتعلق بأهله لمزيد اطلاعه على أحواله أكثر من غيره. وكان أهل مشورته فيما يتعلق بالأمور العامة أكابرُ الصحابة كأبي بكر وعمر، وأما أسامة فهو كعليّ في طول الملازمة، ومزيد الاختصاص والمحبة، ولذلك كانوا يطلقون عليه أنه حِبَّ رسول الله ﷺ، وخصّه دون أبيه وأمه لكونه كان شابّا كعليّ، وإن كان عليّ أسنّ منه، وذلك أن للشاب من صفاء الذهن ما ليس لغيره، ولأنه أكثر جرأة على الجواب بما يظهر له من المُسنّ، لأن المسنّ غالبًا يحسب العاقبة، فربما أخفى ما يظهر له رعاية للقائل تارة والمسؤول عنه أخرى. الفتح: (٨/ ٤٦٩).

ولقد ظلم من اتّهم عليّا رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ بالإفك لقوله هذا. قال الحافظ: وكأنّ بعض من لا خير فيه من الناصبة ـ أي الذين ناصبوا أهل البيت العداء ـ تقرّب إلى بني أمية بهذه الكذبة، فحرّفوا قول عائشة إلى غير وجهه، لعلمهم بانحرافهم عن علي، فظنوا صحتّها، حتى بيّن الزهري للوليد أن الحق خلاف ذلك، فجزاه الله تعالى خيرًا. وقد جاء عن الزهري أن هشام بن عبد الملك كان يعتقد ذلك أيضًا، فقد أخرج يعقوب بن شيبة في مسنده عن الحسن بن علي الحلواني عن الشافعي قال: حدثنا عمي قال: دخل سليمان بن يسار على هشام بن عبد الملك فقال له: يا سليمان، الذي تولّى كبره من هو؟ قال: عبد الله بن أبيّ. قال: كذبت، هو عليّ. =

بَرِيـرَةَ[1] فَقَـالَ: **«أَيْ بَرِيـرَةُ، هَـلْ رَأَيْـتِ مِـنْ شَيْءٍ يَرِيبُـكِ؟»** قَالَـتْ لَـهُ

= قال: أميرُ المؤمنين أعلم بما يقول. فدخل الزهري فقال: يا بن شهاب، من الذي تولّى كبره؟ قال: ابن أبيّ. قال: كذبت، هو عليّ. فقال: أنا أكذب لا أبالك، والله لو نادى مناد من السماء أن الله أحلّ الكذب ما كذبت، حدثني عروة وسعيد وعبيد الله وعلقمة عن عائشة: أن الذي تولى كبره عبد الله بن أبيّ فذكر له قصة مع هشام في آخرها: نحن هيجنا الشيخ، هذا أو معناه. فتح الباري (٨/ ٤٥٥).

(١) وكانت تخدم عائشة بأجرة، وهي في رقِّ مواليها قبل شرائها منهم على الراجح، فإنّها عتقت بعد الفتح، وهذا أولى من دعوى الإدراج وتغليط الحفاظ، وكلّما أمكن الجمع بين الروايات اتّبع، وهذه هي الجادّة المُتَّبَعة عند الأئمة الحُفّاظ.

وبَرِيرَة: هي مولاة كانت لبعض الأنصار كاتبوها، فأدّت عنها أمّنا عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهَا فأعتقتها، فصارت مولاة لها. وقصتها في «الصحيحين» وغيرهما من حديث عائشة وغيرها، وهي التي جاء فيها الحديث: **«الوَلاءُ لمن أَعْتَقَ»** وكانت بريرة تخدم عائشة قبل أن تعتق كما في حديث الإفك، وعاشت إلى خلافة معاوية رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ، وتفرَّست في عبد الملك بن مروان أنه يلي الخلافة، فبشرته بذلك. وعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمَا قَالَ: لمّا خُيِّرت بَرِيرَةُ، رأَيْتُ زَوجها يَتْبَعُهَا فِي سِكَك المدِينةِ، وَدُمُوعُه تَسِيلُ عَلَى لِحْيَتِهِ، فَكُلِّمَ الْعَبَّاسَ لِيُكَلِّمَ فِيهِ النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِبَرِيرَةَ: **«إنه زَوجكِ»** قالت: تَأْمُرُنِي به يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: **«إنّما أنا شَافِعٌ»** قال: =

بَرِيرَةُ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ مَا رَأَيْتُ عَلَيْهَا أَمْرًا قَطُّ أَغْمِصُهُ[1]، غَيْرَ

= فخيرها، فَاختَارتْ نفسهَا. وفي البخاري: قالت: لا حاجة لي فيه. وكان عَبْدًا لِآل المغِيرة، يقال لَهُ: مُغِيثٌ. وفي رواية في الصحيحين: «**يا عباسُ، ألا تعْجَب من حُبِّ مُغيثٍ بريرة، ومن بُغضِ بريرة مُغيثاً؟!**» رواه أحمد (١٨٤٤) والبخاري (٣/٤٦٧).

قلت: وفي أخبارها فوائد فقهية عديدة، في أبواب الشروط والعتق والنكاح وغيرها. وانظر ترجمتها في: الإصابة ٧/٥٣٥ ـ ٥٣٦)

(١) قال الحافظ: وفي رواية حماد بن سلمة عن هشام بن عروة عند الطبراني: فقال: لست عن هذا أسألك، فلمّا فَطِنَتْ قالت: سبحان الله! وهذا يدل على أن المراد بقوله في الرواية: حتى أسقطوا لها به: أي حتى صرّحوا لها بالأمر، فلهذا تعجّبت. وقال ابن الجوزي: أسقطوا لها به: أي صرحوا بها بالأمر. أي: ذكروا لها الحديث وبينوه، فعند ذلك قالت: سبحان الله، والله ما علمت عليها إلا ما يعلم الصائغ على تبر الذهب الأحمر. إنكارًا أو إعظامًا أن تنطق بمثل هذا القول عمّن اختارها الله زوجًا لأطيب خلقه وأفضلهم، وجعلها أحبّ إليه من جميع نساء العالمين، ولا يجوز أن تكون إلا طيبة مثله. ثم قالت: سوى أنها جارية حديثه السن، تنام عن عجين أهلها. في رواية ابن إسحاق: ما كنت أعيب عليها إلا أني كنت أعجن عجيني، وآمرها أن تحفظه، فتنام عنه. وفي رواية مقسم: ما رأيت منها مُذْ كنت عندها إلا أني عجنت عجينًا لي، فقلت: احفظي هذه =

أَنَّهَا جَارِيَةٌ حَدِيثَةُ السِّنِّ، تَنَامُ عَنْ عَجِينِ أَهْلِهَا، فَتَأْتِي الدَّاجِنُ[(١)]

= العجينة حتى أقتبس ناراً لأخبزها، فغفلت، فجاءت الشاة فأكلتها. قال ابن المنيّر في الحاشية: هذا من الاستثناء البديع الذي يُراد به المبالغة في نفي العيب، فغفلتُها عن عجينها أبعدُ لها من مثل الذي رميت به، وأقرب إلى أن تكون من الغافلات المؤمنات. وكذا في قولها في رواية هشام بن عروة: ما علمت إلا ما يعلم الصائغ على الذهب الأحمر، أي كما لا يعلم الصائغ من الذهب الأحمر إلا الخلوص من العيب، فكذلك أنا لا أعلم منها إلا الخلوص من العيب. وفي رواية ابن حاطب عن علقمة: فقالت الجارية الحبشيّة: والله لعائشةُ أطيبُ من الذهب، ولئن كانت صنعتْ ما قال الناس ليخبرنّك الله. قالت: فعجب الناس من فقهها. الفتح ـ مختصرًا ـ: (٨/ ٤٧٠).

وقولها: أغمصه: الغمص: العيب، ومن اشتقاقاته الغمز، فهُما من أحرف الصفير.

وفي قولها: ما أعلم عليها شيئًا أغمصه، دليل على أن من اتهم في دينه بأمر، أنه يُطلب في سائر أحواله نظير ما اتُّهِمَ به، فإن لم يوجد له نظيرٌ لم يصدق عليه ما اتهم فيه، وإن وجد لذلك نظير قويت الشبهة، وحُكِمَ عليه بالتهمة في أغلب الحال لا في الغيب. قاله ابن بطال في شرحه لصحيح البخاري (٨/ ٣٩).

(١) الداجن: الشاة التي تألف البيت وتقيم به، ولا تخرج للمرعى، يقال: =

فَتَأْكُلُهُ.

قَالَتْ: فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ يَوْمِهِ، فَاسْتَعْذَرَ مِنْ عبد اللَّهِ بن أُبَيٍّ وَهُوَ عَلَى الْمِنْبَرِ[1]، فَقَالَ: «**يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ، مَنْ يَعْذِرُنِي مِنْ رَجُلٍ قَدْ بَلَغَنِي عَنْهُ أَذَاهُ فِي أَهْلِي؟ وَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ عَلَى أَهْلِي إِلَّا خَيْرًا، وَلَقَدْ ذَكَرُوا رَجُلًا مَا عَلِمْتُ عَلَيْهِ إِلَّا خَيْرًا، وَمَا يَدْخُلُ عَلَى أَهْلِي إِلَّا مَعِي**»

= دَجَنَ بالمكان، أذا أقام به. وزاد ابن التين: الدجاج، والحمام والوحش والطير ونحوها مما تألف البيوت، كما هي لغة العامة في هذا الزمان بقولهم: دواجن.

(١) وفي رواية عطاء الخرساني عن الزهري بزيادة: وكانت أم أيوب الأنصارية قالت لأبي أيوب: أما سمعتَ ما يتحدّث الناس؟ فحدَّثته بقول أهل الإفك. فقال: ما يكون لنا أن نتكلم بهذا، سبحانك هذا بهتان عظيم. وفي مرسل سعيد بن جبير أن سعد بن معاذ ممن قال ذلك ـ أي ما يكون لنا أن نتكلم بهذا... ـ وروى الطبري أيضًا من طريق بن إسحاق حدثني أبي عن بعض رجال بني النجار أن أبا أيوب قالت له أم أيوب: أما تسمع ما يقول الناس في عائشة؟ قال: بلى، وذلك الكذب، أكنتِ فاعلةً ذلك يا أم أيوب؟! قالت: لا، والله. قال: فعائشة والله خير منك. قالت: فنزل القرآن: ﴿لَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾ الآية. قلت: وفي هذا سلامة قلبه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وحسن ظنه بالمؤمنين، وحزمه في تربية أهله.

قَالَتْ: فَقَامَ سَعْدُ بن مُعَاذٍ[1] ــ أَخُو بَنِي عبد الْأَشْهَلِ ــ فَقَالَ: أَنَا يَا

---

(١) «من يعذرني..» قال الصاحب بن عباد في المحيط في اللغة: (١/ ٨٤): وعَذَرْتُـه مـن فُـلانٍ: أي لُمْـتُ فلانـاً ولم ألمـهُ، وهـو العَـذِيْرُ؛ تقـول: مَـنْ عَذِيْري من فلان: أي مَنْ يَعْذِرُني منه. ويقول الرجل للآخر: ألا تعذِرُني من فـلان، وإنـما هـو شَيء يتقَـدّم بـه إليـه، أي إنـه يَظْلمُنـي، وإنـما يَـسْتَعْذرُ مخافَـةَ المَلامَـة. وعَـذِيْرَكَ مـن فـلان: أي هـاتِ مَـنْ يَعـذِرُكَ منـه. وعَـذِيْرُ الرّجل: ما يَرومُ مما يُعْذَر عليه. وهو حَالُه أيضاً. والجميع: العُذُرُ. وما عندَه عَذِيْرَةٌ ولا غَفِيْرَةٌ: أي لا يَعذِرُ ولا يَغْفِر. وأعذَرَ: أتى بما يُعْذَرُ عليه.
وفي مقال سعد بن معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال السيوطي في الديباج: استدل به القاضي على أن غزوة المريسيع التي كانت فيها قصة الإفك كانت سنة أربع قبل قصة الخندق، فإن سعد بن معاذ مات في أثر غزاة الخندق من الرمية التي أصابته. قال النووي وهو صحيح.
وإلى شيء من سيرة السعدين وأسيد رضوان الله عليهم:
أما سعد بن مُعاذ فهو سيّد الأوس، وهو ابن النعمان بن امرئ القيس ابن زيد بن عبد الأشهل الأوسي الأنصاري، أسلم على يد مصعب بن عمير لـمّا أرسله النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى المدينة يُعلّم المسلمين، شهد بدرًا و أحدًا والخندق، ورماه يومئذٍ حبان بن عرقة في أكحله، فمات من جرحه بعد أيام بعد حكمه الشهير في حلفائه يهود لـمّا غدروا، وهو الذي اهتزّ لموته عرش الرحمن فرحًا برُوحِهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وكان نبي الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ به حفيًا. =

= وأما سعد بن عُبادة سيّد الخزرج، فهو ابن دليم بن حارثة بن أبي حَزِيْمَة الخزرجي الأنصاري. وأُمُّ الأوس والخزرج قَيْلَةُ بنت كاهل. وكان سعد بن عبادة نقيب بني ساعدة، وقد شهد بدرًا ــ عند بعضهم ــ ولم يبايع أبا بكر ولا عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا ــ وبذلك استدل شيخ الإسلام على أن البيعة تنعقد بالسواد الأعظم من أهل الحل والعقد، ولا يشترط لها إجماعهم ــ وهو من كرماء العرب وسادتهم المعدودين، ولما مرض ثقُلَ الناس عن عيادته، فسأل فقيل: ما منهم من أحد إلا ولك عليه دين، فأرسل صارخًا: أنّ كل الناس في حلّ من ديونه عليهم، فلم تمسِ عتبة بابه إلا منكسرة من ازدحام الناس لعيادته، وسار إلى الشام فأقام بحوران إلى أن مات سنة خمس عشرة، ولم يختلفوا أنه وجد ميتًا على مغتسله رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ وأرضاه، واشتهر أن الجن قتلته لما بال في جحر، ولم يثبت ذلك الزعم.

هذا، وإذا أطلق السعدان فهما سعد بن معاذ وسعد بن عبادة، وكلاهما أسلم على يد داعية الإسلام المحنّك مصعب بن عمير، ولما كانا سيّدا قومِهما فشا فيهم الإسلام بحمد الله وكثر وعزّ جدًا. حتى أن الجن المسلمين استبشروا بذلك، فأغاظوا مشركي مكة وأفرحوا مُسلميها بهتافهم، ومن ذلك ما ذكره الماوردي رَحِمَهُٱللَّهُ وغيره في أعلام النبوة: (١/١٨٦) قال: و من بشائر هتوفهم ــ أي الجن ــ: ما حكاه أبو عيسى قال: سَمِعَتْ قريشٌ في الليل هاتفًا على أبي قبيس يقول ـــ وإذا أطلق الهاتف فهو كلام الجن وألحق بعضهم به الملائكة ــ: =

= فإن يُسلم السَّعدان يصبح محمدٌ بمكـةَ لا يخشى خـلافَ مخـالفِ

فلما أصبحوا قال أبو سفيان: من السَّعدان، سعد بكر، وسعد تميم؟ فلما كان في الليلة الثانية سمعوه يقول:

أيا سعدُ سعد الأوس كُن أنتَ ناصرًا ويا سعدُ سعد الخزرجين الغَطَارِفِ

أَجيبـا إلى داعـي الهـدى و تمنّيـا على الله في الفردوسِ مُنيةَ عارفِ

فـإنَّ ثـوابَ اللهِ للطالـبِ الهُـدَى جِنانٌ من الفردوسِ ذاتُ زخارفِ

فلما أصبحوا قال أبو سفيان: هما و الله سعد بن معاذ و سعد بن عبادة.

وفي البخاري عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا قالت: كان يوم بُعَاثٍ يوماً قدّمه الله لرسوله ﷺ، فقدم رسول الله ﷺ وقد افترق ملؤهم، وقُتِلَتْ سَرَوَاتُهم، وجُرِّحُوا، قدّمه الله لرسوله في دخولهم الإسلام. (البخاري: ٣٧٧٧) والسروات: جمع سريّ وهو السيد الشريف المطاع. وكان على الأوس يوم بُعاث وقد انتصرت يوم ذاك حضير بن سماك الأشهلي أبو أسيد بن حضير، وعلى الخزرج عمرو بن النعمان البياضي فقتلا جميعًا.

قلت: ومن تقدِمَةِ ذلك رئاسةُ السعدين، ولم يكونا من كبار السن، فشَرْخُ الشباب مُؤْذِنٌ بقبول الحق، والانصياع للهدى، خلافًا للشيخ الكبير، فإنه لا يكاد يترك مذهبه، ولو استبان ضلاله! كذلك فقد كانت الأوس والخزرج تتشنف حينها لمن يجمع عصاها جميعًا إذ ملّت وكلّت القتال والخوف، لذا فقد كانت يهود تُعِدُّ حليفها الفاجر عبد الله ابن أبي ابن سلول لتملّكه على بني قيلة، ويأبى الله إلا أن يأتيهم من يسوسهم سياسة الأنبياء الكُمّل، لا الملوك الجبابرة. =

= قال ابن إسحاق في سيرته: ومرّ شأس بن قيس، وكان شيخًا يهوديّاً قد عسا، عظيم الكفر، شديد الضغن على المسلمين، شديد الحسد لهم، على نفر من أصحاب رسول الله ﷺ من الأوس والخزرج، في مجلس قد جمعهم يتحدّثون فيه، فغاظه ما رأى من ألفتهم وجماعتهم وصلاح ذات بينهم على الإسلام، بعد الذي كان بينهم من العداوة في الجاهلية. فقال: قد اجتمع ملأ بني قيلة بهذه البلاد! لا والله ما لنا معهم إذا اجتمع ملؤهم بها من قرار. فأمر فتًى شابًّا من يهود كان معهم فقال: اعمد إليهم فاجلس معهم، ثم اذكر يوم بعاث وما كان قبله، وأنشِدْهُم بعض ما كانوا تقاولوا فيه من الأشعار. ففعل، فتكلّم القومُ عند ذلك وتنازعوا وتفاخروا، حتى تواثب رجلان من الحيّين على الركب، فتقاولا ثم قال أحدهما لصاحبه: إن شئتم رددناها الآن جَذَعَة! فغضب الفريقان جميعًا، وقالوا: قد فعلنا، موعدكم الظاهرة ـ والظاهرة الحرة ـ السلاحَ السلاحَ! فخرجوا إليها، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فخرج إليهم فيمن معه من أصحابه المهاجرين حتى جاءهم فقال: «**يا معشر المسلمين، اللهَ اللهَ، أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن هداكم الله للإسلام، وأكرمكم به، وقطع به عنكم أمر الجاهلية، واستنقذكم به من الكفر، وألف به بين قلوبكم؟!**» فعرف القوم أنها نزغةٌ من الشيطان، وكيدٌ من عدوّهم، فبكوا وعانق الرجال من الأوس والخزرج بعضهم بعضًا، ثم انصرفوا مع رسول الله ﷺ سامعين مطيعين، قد أطفأ الله عنهم كيد عدو الله =

= شأس بن قيس. فأنزل الله تعالى في شأس بن قيس وما صنع: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾﴾ وأنزل الله في من كادوا يقتتلون على أمر الجاهلية بكيد عدوهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ٩٨-١٠٥] وانظر: الروض الأُنف: (٤١٦).

وفي المعجم الكبير (٦/ ٧): أن سعد بن معاذ لمّا رُمي في أكحله قال: ربّ اشفني من بني قريظة قبل الممات. فرَقَا الكَلْمُ بعدما قد انفجر ــ أي التأم الجرح ــ قال: وأقام النبي ﷺ على بني قريظة ــ أي محاصِرًا ــ حتى سألوه أن يجعل بينه وبينهم حكمًا ينزلون على حكمه، فقال رسول الله ﷺ: اختاروا من أصحابي من أردتم فلنستمع لقوله. فاختاروا سعد بن معاذ، فرضيَ به رسول الله ﷺ، وسلّموا. وأَمَرَ رسول الله ﷺ بأسلحتهم فجعلت في بيت، وأُمِرَ بهم فكتّفوا وأوثقوا، فجُعلوا في دار أسامة بن زيد، وبعث رسول الله ﷺ إلى سعد بن معاذ فأقبَلَ على حمارٍ أعرابي، يزعمون أن وطاءه برذعةٌ من ليف، واتّبعه رجل من بني=

= عبد الأشهل فجعل يمشي معه يُعظِّمُ حقَّ بني قريظة، ويذكرُ حِلْفهم والذي أبلوهُ يوم بعاث، و أنهم اختاروك على من سواك، رجاء عطفك وتحننك عليهم، فاستبقهم فإنّهم لك جِمالٌ وعَدَد ـ وتأمّل عظيم وقع هذا الكلام لو كان عند غير سعد الذي أراد وجه الله والدار الآخرة ــ قال: فأكثر ذلك الرجلُ ولم يحر إليه سعد شيئًا، حتى دنوا فقال له الرجل: ألا ترجع إلي شيئا؟ فقال سعد: والله لا أبالي في الله لومةُ لائم، ففارقه الرجل فأتى إلى قومه قد يئس من أن يستبقيهم، وأخبرهم بالذي كلمه به، والذي رجع إليه، ــ أي نعاهم إليهم ــ ونَفذَ سعدٌ حتى أتى رسول الله ﷺ فقال: يا سعد، احكم بيننا وبينهم. فقال سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أحكم فيهم: بأن تُقتلَ مقاتلتهم، ويُغتنم سبيهم، وتؤخذ أموالهم، وتسبى ذراريهم ونساؤهم. فقال رسول الله ﷺ: «**حكم فيهم سعد بن معاذ بحكم الله**».

فأُخرجوا رسلًا رسلًا فضربت أعناقُهُم، وأخرج حييٌّ بن أخطب فقال له رسول الله ﷺ: «**هل أخزاك الله؟**» فقال: قد ظهرتَ عليَّ، وما ألومُ نفسي فيك! فأمر به رسول الله ﷺ فأخرج إلى أحجار الزيت التي بالسوق فضربت عنقه.

قال ابن إسحاق في السيرة النبوية (٤/ ٢٠٠): ثم استُنزلوا، فحبسهم رسول الله ﷺ بالمدينة، في دار بنت الحارث امرأة من بني النجار، ثم خرج رسول الله ﷺ إلى سوق المدينة، فخندق بها خنادق، ثم بعث إليهم فضربت أعناقهم في تلك الخنادق، يخرج بهم إليه أرسالًا وفيهم =

= عدو الله حيي بن أخطب وكعب بن أسد رأس القوم، وهم ستمئة أو سبعمئة والمكثر لهم يقول كانوا بين الثمانمئة والتسعمئة. وقد قالوا لكعب بن أسد وهم يُذهب بهم إلى رسول الله ﷺ أرسالًا ــ أي جماعات قليلة ــ: يا كعب، ما تراه يصنع بنا؟ قال: أفي كلّ موطن لا تعقلون، ألا ترون الداعي لا ينزِع، وأنه من ذهب به منكم لا يرجع، هو والله القتل! فلم يزل ذلك الدأب حتى فرغ منهم رسول الله ﷺ. وأُتي بحيي بن أخطب عدو الله، وعليه حلّه له قفاحية ـ أي موشّاة ــ قد شقّها عليه من كل ناحية قدر أنملة، لئلا يُسلبها، مجموعةٌ يداه إلى عنقه بحبل، فلما نظر إلى رسول الله ﷺ قال: أما والله ما لمت نفسي في عدواتك، ولكنه من يخذل الله يخذل، ثم أقبل على الناس فقال: أيها الناس، إنه لا بأس بأمر الله، كتاب وقدر، ملحمةٌ كتبها الله على بني إسرائيل! ثم جلس، فضربت عنقه.

قال ابن إسحاق: وقد كان ثابت بن قيس بن الشماس كما ذكر لي ابن شهاب الزهري ، أتى الزبير بن باطا القرظي، وكان يكنى أبا عبد الرحمن، ـ قلت: فقد كانت اليهود تعرف هذا الاسم الحسن ــ وكان الزبير قد مَنَّ على ثابت بن قيس بن شماس في الجاهلية. ذكر لي بعض ولد الزبير أنه كان مَنَّ عليه يوم بعاث، أخذه فجزّ ناصيته ثم خلّى سبيله. فجاءه ثابت وهو شيخ كبير، فقال: يا أبا عبد الرحمن هل تعرفني؟ قال وهل يجهل مثلي مثلك ، قال: إني قد أردت أن أجزيك بيدك عندي، قال: إن الكريم يجزي الكريم. ثم أتى ثابت بن قيس رسول الله ﷺ فقال: يا =

= رسول الله، إنه قد كانت للزبير علي منّة، وقد أحببت أن أجزيه بها، فهب لي دمه، فقال رسول الله ﷺ: هو لك، فأتاه فقال: إن رسول الله ﷺ قد وهب لي دمك، فهو لك، قال: شيخ كبير، لا أهل له ولا ولد، فما يصنع بالحياة؟ قال: فأتى ثابت رسول الله ﷺ فقال: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، هب لي امرأته وولده، قال هم لك. قال: فأتاه فقال: قد وهب لي رسول الله ﷺ أهلك وولدك، فهم لك. قال: أهل بيت بالحجاز لا مال لهم، فما بقاؤهم على ذلك؟ فأتى ثابت رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله مالَهُ، قال: هو لك. فأتاه ثابت فقال: قد أعطاني رسول الله ﷺ مالك، فهو لك، قال: أي ثابت، ما فعل الذي كأن وجهه مرآة صينية يتراءى فيها عذارى الحي كعب بن أسد؟ قال: قتل، قال: فما فعل سيد الحاضر والبادي حيي بن أخطب؟ قال: قتل، قال: فما فعل مقدمتنا إذا شددنا، وحاميتنا إذا فررنا، عزال بن سموأل؟ قال: قتل، قال: فما فعل المجلسان؟ يعني بني كعب بن قريظة، وبني عمرو بن قريظة؟ قال ذهبوا، قتلوا. قال: فإني أسألك يا ثابت، بيدي عندك إلا ألحقتني بالقوم! فوالله ما في العيش بعد هؤلاء من خير، فما أنا بصابر لله قتلة دلو ناضح، حتى ألقى الأحبة! فقدّمه ثابت فضرب عنقه. فلما بلغ أبا بكر الصديق قوله ألقى الأحبة، قال: يلقاهم والله في نار جهنم خالدًا مخلدًا.

وعن عروة بن الزبير، عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت: لم يُقتل من نسائهم إلا امرأة واحدة، قالت: والله إنها لعندي تحدث معي، وتضحك =

= ظهرًا وبطنًا، ورسول الله ﷺ يقتلُ رجالَها في السوق، إذ هتف هاتف باسمها أين فلانة؟ قالت: أنا والله. قالت: قلت لها: ويلك ما لك؟ قالت: أُقتَل! قلت: ولمَ؟ قالت: لحدث أحدثته. قالت: فانطلق بها فضرب عنقها. فكانت عائشة تقول: فوالله ما أنسى عجبًا منها طيبَ نفسها، وكثرةَ ضحكها، وقد عَرَفَتْ أنها تقتل. قال ابن هشام: هي التي طرحت الرحا على خلّاد بن سويد فقتلته.

وقد كان جرحُ سعد قد برئ، ثم إنه دعا فقال: اللّٰهم رب السماوات والأرض، إنه لم يكن في الأرض قوم أبغض إلي من قوم كذبوا رسولك وأخرجوه، وأني أظن أن قد وضعت الحرب بيننا وبينهم، فإن كان بقي بيننا وبينهم قتال فأبقني أقاتلهم فيك، وأن كنت قد وضعت الحرب بيننا وبينهم فافجُرْ هذا المكان، واجعل موتي فيه، ففجره الله تبارك وتعالى وإنه لراقد بين ظهري الليل، فما دروا به حتى مات رحمه الله ورضي عنه.

وأما أُسَيْد بن حُضَيْر، فهو ابن سماك بن عتيك بن امرئ القيس الأشهلي الأوسي الأنصاري، أبو يحيى، أسلم على يد مصعب بن عمير بالمدينة بعد العقبة الأولى وقيل الثانية، في قصّة جميلة تدل على حُسْنِ تأتّي مصعبٍ للناس في دعوتهم إلى الله تعالى. واختُلف في شهوده بدرًا، فنفاه ابن إسحاق والكلبي، وأثبته غيرهما، وشهد أحدًا وما بعدها من المشاهد، وشهد مع عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فتح بيت المقدس. وهو من أبناء عمومة سعد بن معاذ، ولم يكادا يفترقان في جاهلية وإسلام، وهو القائل لعائشة في قصة نزول آية التيمم: ما هذه بأول بركتكم يا آل أبي بكر. وكان من شجعان الأنصار وسادتهم ومقدَّميهم، مات بالمدينة سنة عشرين، وصلّى عليه عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. =

= وفي قصة إسلامه هو وسعد بن معاذ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا عبرٌ: فقد كان سعد بن معاذ وأسيد بن حضير سيِّدَيْ قومهما من بني عبد الأشهل، وكانا مشركين على دين قومهما، فلما سمعا بمصعب بن عمير ونشاطه في الدعوة إلى الإسلام قال سعد لأسيد: لا أبالك، انطلق إلى هذين الرجلين اللذين أتيا دارينا ليسفها ضعفاءنا فازجرهما ــ أي مصعب وأسعد ــ ، وانههما أن يأتيا دارينا، فإنّه لولا أسعد بن زرارة مني حيث قد علمت كفيتك ذلك، هو ابن خالتي ولا أجد عليه مقدماً، فأخذ أسيد حربته ثم أقبل عليهما، فلما رآه أسعد بن زرارة قال: هذا سيّد قومه، وقد جاءك فاصدق الله فيه، قال مصعب: إن يجلس أكلِّمْهُ، فوقف عليهما متشتّمًا فقال: ماجاء بكما تسفِّهان ضعفاءنا؟ اعتزلانا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة، فقال له مصعب بلسان المؤمن الهادئ الواثق من سماحة دعوته: أو تجلس فتسمع، فإن رضيت أمراً قبلته، وإن كرهته كفّ عنك ما تكره؟ قال أسيد: أنصفْتَ، ثم ركز حربته، وجلس إليهما، فكلّمه مصعب بالإسلام، وقرأ عليه القرآن، فقالا فيما يذكر عنهما: والله لعرفنا في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم في إشراقه وتسهُّله، ثم قال: ما أحسن هذا الكلام وأجمله! كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا الدين؟ قالا له: تغتسل فتطهَّر وتطهِّر ثوبيك، ثم تشهد شهادة الحق؟ ثم تصلِّي، فقام فاغتسل وطهّر ثوبيه وتشهد شهادة الحق، ثم قام فركع ركعتين، ثم قال لهما: إن ورائي رجلاً إن اتبعكما لم يتخلف عنه أحد من قومه، وسأرسله إليكم الآن: سعد بن معاذ. =

= ثم أخذ حربته وانصرف إلى سعد وقومه وهم جلوس في ناديهم، فلما نظر إليه سعد مقبلاً قال: أحلف بالله لقد جاءكم أسيد بن حضير بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم ! ـ قلت: ذاك نور الإيمان وانبلاج الأسارير بِرَوْحِهِ ـ فلما وقف على النادي قال له سعد: ما فعلت؟ قال: كلمت الرجلين فوالله ما رأيت بهما بأسًا، وقد نهيتهما فقالا: نفعل ما أحببت، وقد حُدِّثت أن بني حارثة خرجوا إلى أسعد بن زرارة ليقتلوه، وذلك أنهم عرفوا أنه ابن خالتك ليخفروك ــ وفيه دهاء ابن حضير ليحفّز حمية ابن معاذ فيلي الأمر بنفسه ــ فقام سعد مغضباً مبادراً مخوفاً للذي ذكر له من أمر بني حارثة، وأخذ الحربة في يده ثم قال: والله ما أراك أغنيت شيئاً، ثم خرج إليهما سعد فوجدهما مطمئنين، فعرف أن أسيداً إنما أراد أن يسمع منهما، فوقف متشتماً، ثم قال لأسعد بن زرارة: والله يا أبا أمامة لولا ما بيني وبينك من القرابة ما رُمْتَ هذا مني، أتغشانا في دارنا بما نكره؟! وكان أسعد قد قال لمصعب: لقد جاء والله سيد من وراءه من قومه، إن يتبعك لا يتخلف منهم اثنان، فقال له مصعب: أو تقعد فتسمع؟ فإن رضيت أمراً ورغبت فيه قبلتَهُ، وإن كرهته عزلنا عنك ما تكره، فقال سعد: أنصفت، ثم ركز الحربة وجلس، فعرض عليه الإسلام، وقرأ القرآن، وذكر موسى بن عقبة أنه قرأ عليه أول سورة الزخرف، قالا: فعرفنا والله في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم في إشراقه وتسهله. ثم قال لهما: كيف تصنعون إذا أنتم أسلمتم، ودخلتم في هذا الدين؟ قالا: تغتسل، فتطهَّر وتطهِّر ثوبيك، ثم تشهد شهادة الحق، ثم

رَسُولَ اللَّهِ أَعْذِرُكَ، فَإِنْ كَانَ مِنْ الْأَوْسِ ضَرَبْتُ عُنُقَهُ، وَإِنْ كَانَ مِنْ إِخْوَانِنَا مِنْ الْخَزْرَجِ أَمَرْتَنَا فَفَعَلْنَا أَمْرَكَ. قَالَتْ: فَقَامَ رَجُلٌ مِنْ الْخَزْرَجِ ـ وَكَانَتْ أُمُّ حَسَّانَ[1] بِنْتَ عَمِّهِ مِنْ فَخِذِهِ[2] ـ وَهُوَ سَعْدُ بن عُبَادَةَ،

= تصلي ركعتين، فقام فاغتسل، وطهر ثوبيه، ثم تشهد شهادة الحق، ثم ركع ركعتين، ثم أخذ حربته فأقبل عائداً إلى نادي قومه ومعه أسيد بن حضير، فلما رآه قومه مقبلاً قالوا: نحلف بالله لقد رجع إليكم سعد بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم، فلما وقف عليهم قال: يا بني عبد الأشهل كيف تعلمون أمري فيكم؟ قالوا: سيّدنا وأفضلنا رأياً وأيمننا نقيبة، قال: فإن كلام رجالكم ونسائكم عليّ حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله، قال: فوالله ما أمسى في دار بني عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلا مسلماً أو مسلمة ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ما أيمن نقيبته ـ

ورجع أسعد ومصعب إلى منزل أسعد بن زرارة، فأقام عنده يدعو الناس إلى الإسلام حتى لم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رجال مسلمون ونساء مسلمات، إلا ما كان من الأصيرم، وهو عمرو بن ثابت بن وقش، فإنه تأخر إسلامه إلى يوم أحد فأسلم، واستشهد بأحد، ولم يصلِّ لله بسجدة قط، وأخبر رسول الله ﷺ أنه من أهل الجنة.

(١) واسمها فُريعة بنت خالد بن خنيس الأنصارية، والدة حسان بن ثابت، وإليها كان ينسب، فيقال: قال ابن الفريعة. ذكرها ابن سعد في المبايعات. ترجمتها في: الطبقات: (٢/ ٢٧١) والإصابة: (٨/ ٧٣).

(٢) من فخذه: عند النسابة الفخذُ في العشائر أقلُّ من البطن، أولها: الشعب، =

وَهُوَ سَيِّدُ الْخَزْرَجِ، قَالَتْ: وَكَانَ قَبْلَ ذَلِكَ رَجُلًا صَالِحًا، وَلَكِنْ احْتَمَلَتْهُ[1] الْحَمِيَّةُ فَقَالَ لِسَعْدٍ: كَذَبْتَ لَعَمْرُ اللَّهِ لَا تَقْتُلُهُ، وَلَا تَقْدِرُ عَلَى قَتْلِهِ[2]، وَلَوْ كَانَ مِنْ رَهْطِكَ مَا أَحْبَبْتَ أَنْ يُقْتَلَ. فَقَامَ أُسَيْدُ بن حُضَيْرٍ ـ وَهُوَ ابْنُ عَمِّ سَعْدٍ ـ فَقَالَ لِسَعْدِ بن عُبَادَةَ: كَذَبْتَ لَعَمْرُ اللَّهِ لَنَقْتُلَنَّهُ[3]، فَإِنَّكَ مُنَافِقٌ[4] تُجَادِلُ عَنْ الْمُنَافِقِينَ[5] قَالَتْ:

= ثم القبيلة، ثم الفصيلة، ثم العمارة، ثم البطن، ثم الفخذ. قال الحافظ: وقولها من فخذه بعد قولها بنت عمه: إشارة إلى أنها ليست بنت عمه لحا، لأن سعد بن عبادة يجتمع معها في ثعلبة.

(١) وفي لفظ بالجيم، اجتهلته: أي استخفته وأغضبته وحملته على الجهل. أما بالحاء احتملته فمعناها: أغضبته. يقال: احتمل الرجل، إذا غضب. والروايتان صحيحتان. والاجتهال: افتعال من الجهل، أي: حملته الحمية، وهي الأنفة والغضب على الجهل، واحتملته: افتعلته من الحَمْلِ.

(٢) ولا تقدر: يعني أن النبي ﷺ لم يجعله إليك. الفجر الساطع (٣/ ٩٨)

(٣) لنقتلنه: أي إن أمرنا النبي ﷺ بقتله.

(٤) منافق: قاله مبالغة في زجر سعد، وحاشاه من ذلك، بل هو من خيار الصحابة وأجلّتهم وكرمائهم وشجعانهم وسادتهم.

(٥) قال شيخ الإسلام رحمه الله في مجموع الفتاوى(٧/ ٥٢٢ ـ ٥٢٥) في هذا الشأن المُشكِل عند كثير من الناس: إن شعب الإيمان قد تتلازم عند القوة، ولا تتلازم عند الضعف، فإذا قوي ما في القلب من التصديق =

= والمعرفة والمحبة لله ورسوله أوجب بغض أعداء الله. كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانُواْ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِيِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ وقال: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ وقد تحصل للرجل موادتهم لرحم أو حاجة، فتكون ذنبًا ينقص به إيمانه، ولا يكون به كافرًا، كما حصل من حاطب بن أبي بلتعة لما كاتب المشركين ببعض أخبار النبي ﷺ، وأنزل الله فيه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ وكما حصل لسعد بن عبادة لما انتصر لابن أُبَيّ في قصة الإفك فقال لسعد بن معاذ: كذبت والله؛ لا تقتله ولا تقدر على قتله، قالت عائشة: وكان قبل ذلك رجلا صالحًا، ولكن احتملته الحميّة. ولهذه الشبهة سمّى عمرُ حاطبًا منافقًا فقال: دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق، فقال: «**إنه شهد بدرًا**» فكان عمر متأولًا في تسميته منافقًا للشبهة التي فعلها. وكذلك قول أسيد بن حضير لسعد بن عبادة: كذبت لعمر الله لنقتلنّه، إنما أنت منافق تجادل عن المنافقين، هو من هذا الباب. وكذلك قول من قال من الصحابة عن مالك بن الدخشم: منافق. وإن كان قال ذلك لما رأى فيه من نوع معاشرة ومودة للمنافقين. =

= ولهذا لم يكن المتّهمون بالنفاق نوعًا واحدًا، بل فيهم المنافق المحض، وفيهم من فيه إيمان ونفاق، وفيهم من إيمانه غالب وفيه شعبة من النفاق. وكان كثير ذنوبهم بحسب ظهور الإيمان، ولمّا قوي الإيمان وظهر الإيمان وقوته عام تبوك؛ صاروا يعاتبون من النفاق على ما لم يكونوا يعاتبون عليه قبل ذلك.

ومن هذا الباب ما يروى عن الحسن البصري ونحوه من السلف؛ أنهم سمّوا الفساق منافقين؛ فجعل أهل المقالات هذا قولًا مخالفا للجمهور، إذا حكوا تنازع الناس في الفاسق الملّي هل هو كافر؟ أو فاسق ليس معه إيمان؟ أو مؤمن كامل الإيمان؟ أو مؤمن بما معه من الإيمان، فاسق بما معه من الفسق؟ أو منافق والحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى لم يقل ما خرج به عن الجماعة، لكن سماه منافقًا على الوجه الذي ذكرناه.

والنفاق كالكفر؛ نفاق دون نفاق، ولهذا كثيرًا ما يقال: كفر ينقل عن الملّة، وكفر لا ينقل، ونفاق أكبر، ونفاق أصغر، كما يقال: الشرك شركان: أصغر وأكبر. وفي صحيح أبي حاتم وغيره عن النبي ﷺ أنه قال: «**الشرك في هذه الأمة أخفى من دبيب النمل**» فقال أبو بكر: يا رسول الله، كيف ننجو منه وهو أخفى من دبيب النمل؟ فقال: «**ألا أعلّمك كلمة إذا قلتها نجوت من دقه وجلّه؟ قل: اللّهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم، وأستغفرك لما لا أعلم**» وفي الترمذي عن النبي ﷺ أنه قال: «**من حلف بغير الله فقد أشرك**» قال الترمذي حديث حسن. =

= وبهذا تبين أن الشارع ينفي اسم الإيمان عن الشخص لانتفاء كماله الواجب، وإن كان معه بعض أجزائه، كما قال: «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن**» ومنه قوله: «**من غشنا فليس منّا، ومن حمل علينا السلاح فليس منّا**» فإن صيغة «أنا» و«نحن» ونحو ذلك من ضمير المتكلم في مثل ذلك يتناول النبي ﷺ والمؤمنين معه ـ الإيمان المطلق ـ الذي يستحقون به الثواب بلا عقاب. ومن هنا قيل: إن الفاسق الملّي يجوز أن يقال: هو مؤمن باعتبار، ويجوز أن يقال: ليس مؤمنًا باعتبار.

وبهذا تبين أن الرجل قد يكون مسلمًا لا مؤمنًا ولا منافقًا مطلقًا، بل يكون معه أصل الإيمان دون حقيقته الواجبة. ولهذا أنكر أحمد وغيره من الأئمة على من فسّر قوله ﷺ «**ليس منّا**» ليس مثلنا، أو ليس من خيارنا، وقال: هذا تفسير المرجئة. وقالوا: لو لم يفعل هذه الكبيرة كان يكون مثل النبي ﷺ. وكذلك تفسير الخوارج والمعتزلة بأنه يخرج من الإيمان بالكليّة، ويستحق الخلود في النار تأويل منكر كما تقدّم، فلا هذا ولا هذا. انتهى.

وانظر كذلك: الإيمان الأوسط لابن تيمية رحمه الله (١/ ١٣٨).

وقال رحمه الله في مجموع الفتاوى (٣/ ٢٨٢ ـ ٢٨٨) باختصار:

ولا يجوز تكفير المسلم بذنب فعله، ولا بخطأ أخطأ فيه، كالمسائل التي تنازع فيها أهل القبلة، فإن الله تعالى قال: ﴿**ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ**﴾ =

= أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ وقد ثبت في الصحيح أن الله تعالى أجاب هذا الدعاء، وغفر للمؤمنين خطأهم. والخوارج المارقون الذين أمر النبي ﷺ بقتالهم؛ قاتلهم أميرُ المؤمنين علي بن أبي طالب أحد الخلفاء الراشدين. واتفق على قتالهم أئمةُ الدين من الصحابة والتابعين ومن بعدهم. ولم يكفّرهم علي بن أبي طالب وسعد بن أبي وقاص وغيرهما من الصحابة، بل جعلوهم مسلمين مع قتالهم، ولم يقاتلهم عليّ حتى سفكوا الدم الحرام، وأغاروا على أموال المسلمين؛ فقاتلهم لدفع ظلمهم وبغيهم، لا لأنهم كفار. ولهذا لم يسب حريمهم، ولم يغنم أموالهم.

وإذا كان هؤلاء الذين ثبت ضلالهم بالنص والإجماع لم يكفروا مع أمر الله ورسوله بقتالهم؛ فكيف بالطوائف المختلفين، الذين اشتبه عليهم الحق في مسائل غلط فيها من هو أعلم منهم؟! فلا يحل لأحد من هذه الطوائف أن تكفّر الأخرى، ولا تستحلّ دمها ومالها وإن كانت فيها بدعة محققة، فكيف إذا كانت المكفّرة لها مبتدعة أيضًا؟! وقد تكون بدعة هؤلاء أغلظ، والغالب أنهم جميعًا جُهّالٌ بحقائق ما يختلفون فيه.

والأصل أن دماء المسلمين وأموالهم وأعراضهم محرمة من بعضهم على بعض، لا تحل إلا بإذن الله ورسوله. قال النبي ﷺ لما خطبهم في حجة الوداع: «**إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا في شهركم هذا**» وقال: «**كل المسلم على المسلم حرام،**=

= **دمه وماله وعرضه**» وقال: «**من صلى صلاتنا، واستقبل قبلتنا، وأكل ذبيحتنا، فهو المسلم، له ذمة الله ورسوله**» وقال: «**إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار**» قيل: يا رسول الله، هذا القاتل، فما بال المقتول؟ قال: «**إنه أراد قتل صاحبه**» وقال: «**لا ترجعوا بعدي كفّارًا يضرب بعضكم رقاب بعض**» وقال: «**إذا قال المسلم لأخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما**» وهذه الأحاديث كلها في الصحاح.

وإذا كان المسلم متأولًا في القتال أو التكفير؛ لم يكفر بذلك كما قال عمر بن الخطاب لحاطب بن أبي بلتعة: يا رسول الله، دعني أضرب عنق هذا المنافق، فقال النبي ﷺ: «**إنه قد شهد بدرًا وما يدريك أن الله قد اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم؟**» وهذا في الصحيحين، وفيهما أيضًا من حديث الإفك: أن أسيد بن الحضير قال لسعد بن عبادة: إنك منافق تجادل عن المنافقين، واختصم الفريقان، فأصلح النبي ﷺ بينهم. فهؤلاء البدريون فيهم من قال لآخر منهم: إنك منافق، ولم يكفّر النبي ﷺ لا هذا ولا هذا، بل شهد للجميع بالجنة.

وكذلك ثبت في الصحيحين عن أسامة بن زيد أنه قتل رجلًا بعد ما قال لا إله إلا الله، وعظّم النبي ﷺ ذلك لما أخبره وقال: «**يا أسامة، أقتلته بعد ما قال لا إله إلا الله؟**» وكرر ذلك عليه، حتى قال أسامة: «تمنّيت أني لم أكن أسلمت إلا يومئذ» ومع هذا لم يوجب عليه قودًا ولا ديةً ولا كفارةً؛ لأنه كان متأولًا ظن جواز قتل ذلك القائل، لظنّه أنه قالها تعوذًا. =

= فهكذا السلف قاتل بعضهم بعضًا من أهل الجمل وصفين ونحوهم وكلّهم مسلمون مؤمنون كما قال تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾ فقد بيّن الله تعالى أنهم مع اقتتالهم وبغي بعضهم على بعض إخوة مؤمنون وأمر بالإصلاح بينهم بالعدل.

ولهذا كان السلف مع الاقتتال يوالي بعضهم بعضا موالاة الدين، لا يعادون كمعاداة الكفار، فيقبل بعضهم شهادة بعض، ويأخذ بعضهم العلم عن بعض، ويتوارثون، ويتناكحون، ويتعاملون بمعاملة المسلمين بعضهم مع بعض، مع ما كان بينهم من القتال والتلاعن وغير ذلك. وقد ثبت في الصحيح أن النبي ﷺ سأل ربه أن لا يُهلك أمته بسَنَةٍ عامة فأعطاه ذلك، وسأله أن لا يسلّط عليهم عدوًّا من غيرهم فأعطاه ذلك، وسأله أن لا يجعل بأسهم بينهم فلم يعط ذلك، وأخبر أن الله لا يسلّط عليهم عدوًّا من غيرهم يغلبهم كلّهم، حتى يكون بعضهم يقتل بعضًا، وبعضهم يسبي بعضًا. وثبت في الصحيحين لما نزل قوله تعالى: ﴿قُلۡ هُوَ ٱلۡقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبۡعَثَ عَلَيۡكُمۡ عَذَابٗا مِّن فَوۡقِكُمۡ﴾ قال: «**أعوذ بوجهك**» ﴿أَوۡ مِن تَحۡتِ أَرۡجُلِكُمۡ﴾ قال: «**أعوذ بوجهك**» ﴿أَوۡ يَلۡبِسَكُمۡ شِيَعٗا وَيُذِيقَ بَعۡضَكُم بَأۡسَ بَعۡضٍۗ﴾ قال: «**هاتان أهون**». =

= هذا مع أن الله أمر بالجماعة والائتلاف، ونهى عن البدعة والاختلاف، وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ وقال النبي ﷺ: «**عليكم بالجماعة فإن يد الله على الجماعة**» وقال: «**الشيطان مع الواحد، وهو من الاثنين أبعد**» وقال: «**الشيطان ذئب الإنسان كذئب الغنم، والذئب إنما يأخذ القاصية والنائية من الغنم**».

فالواجب على المسلم إذا صار في مدينة من مدائن المسلمين أن يصلي معهم الجمعة والجماعة، ويوالي المؤمنين ولا يعاديهم، وإن رأى بعضهم ضالًّا أو غاويًا وأمكن أن يهديه ويرشده فعل ذلك، وإلا فلا يكلف الله نفسًا إلا وسعها. وإذا كان قادرا على أن يولي في إمامة المسلمين الأفضل ولاه، وإن قدر أن يمنع من يظهر البدع والفجور منعه. وإن لم يقدر على ذلك فالصلاة خلف الأعلم بكتاب الله وسنة نبيه الأسبق إلى طاعة الله ورسوله أفضل كما قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «**يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله، فإن كانوا في القراءة سواء فأعلمهم بالسنة، فإن كانوا في السنة سواء فأقدمهم هجرة، فإن كانوا في الهجرة سواء فأقدمهم سنًّا**».

وإن كان في هجره لمُظهِرِ البدعة والفجور مصلحةٌ راجحة هجره، كما هجر النبي ﷺ الثلاثة الذين خلّفوا حتى تاب الله عليهم. وأما إذا ولى غيره بغير إذنه، وليس في ترك الصلاة خلفه مصلحة شرعية؛ كان تفويت هذه الجمعة والجماعة جهلًا وضلالًا، وكان قد ردّ بدعة ببدعة. حتى إن المصلي الجمعة خلف الفاجر اختلف الناس في إعادته الصلاة، وكرهها =

= أكثرهم حتى قال أحمد بن حنبل في رواية عبدوس: من أعادها فهو مبتدع. وهذا أظهر القولين لأن الصحابة لم يكونوا يعيدون الصلاة إذا صلوا خلف أهل الفجور والبدع، ولم يأمر الله تعالى قط أحدًا إذا صلى كما أمر بحسب استطاعته أن يعيد الصلاة.

وبالجملة؛ فالمتأول والجاهل المعذور ليس حكمه حكم المعاند والفاجر، بل قد جعل الله لكل شيء قدرًا.

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ في المستدرك على مجموع الفتاوى(١/ ١٣١ ـــ ١٣٣) في كلامه على الإيمان المطلق والمقيد وضرب أمثله ثم قال: ومثل هذا كثير في الكتاب والسنة، ينتفي الاسم عن المسمى تارة لنفي حقيقته وكماله، ويثبت له تارة لوجود أصله وبعضه؛ حتى يقال للعالم القاصر، والصانع القاصر: هذا عالم وهذا صانع، بالنسبة إلى من لا يعلم وإلى من لا يصنع. ويقال: هذا ليس بعالم ولا صانع، لوجود نقصه وتقصيره. ويقال للكامل: هو العالم والصانع، وهذا هو الشجاع، وأمثاله كثيرة من الأسماء والصفات: كالمؤمن، والكافر، والفاسق، والمنافق.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في المدارج (١/٣٢٨): وأيضًا فإنه يعفى للمحب، ولصاحب الإحسان العظيم، ما لا يُعفى لغيره، ويُسامح بها لا يسامح به غيره. وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول: انظر إلى موسى صلوات الله وسلامه عليه، رَمَى الألواحَ التي فيها كلام الله الذي كتبه بيده فكسرها! وجَرَّ بلحية نبيٍّ مثله وهو هارون! ولَطَمَ عينَ =

فَثَارَ[1] الْحَيَّانِ الْأَوْسُ وَالْخَزْرَجُ حَتَّى هَمُّوا أَنْ يَقْتَتِلُوا، وَرَسُولُ اللَّهِ

= ملَك الموت ففقأها! وعاتب ربَّه ليلة الإسراء في محمد ﷺ ورَفْعِهِ عليه! وربُّهُ تعالى يحتمل له ذلك كلّه، ويحبه، ويكرمه، ويُدَلِّلُه، لأنه قام لله تلك المقامات العظيمة، في مقابلة أعدى عدو له، وصدع بأمره، وعالج أمتي القبط وبني إسرائيل أشدَّ المعالجة، فكانت هذه الأمور كالشعرة في البحر. وانظر إلى يونس بن متى عليه السلام حيث لم تكن له هذه المقامات التي لموسى غاضب ربَّهُ مرَّة، فأخذه وسجنه في بطن الحوت، ولم يحتمل له ما احتمل لموسى.

وقال أيضًا في المدارج: (٢/ ٤٥٦): وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية يقول: وكذلك لطم موسى عين مالك الموت ففقأها، ولم يعتب عليه ربه؛ وفي ليلة الإسراء عاتب ربه في النبي ﷺ إذ رفعه فوقه، ورفع صوته بذلك، ولم يعتبه الله على ذلك. قال: لأن موسى عليه السلام قام تلك المقامات العظيمة التي أوجبت له هذا الدلال؛ فإنه قاوم فرعون أكبر أعداء الله تعالى، وتصدّى له ولقومه، وعالج بني إسرائيل أشد المعالجة، وجاهد في الله أعداء الله أشد الجهاد، وكان شديد الغضب لربه فاحتمل له ما لم يحتمله لغيره. وذو النون لما لم يكن في هذا المقام سجنه في بطن الحوت من غضبه. وقد جعل الله لكل شيء قدرًا.

(١) وفي لفظ: فتثاور. ومعنى تثاور الناس أي: ثاوروا ونهضوا من أماكنهم، طلبًا للفتنة.

ﷺ قَائِمٌ عَلَى الْمِنْبَرِ قَالَتْ فَلَمْ يَزَلْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُخَفِّضُهُمْ[1] حَتَّى

(١) يخفضهم: يسكّنهم. قال الحافظ: زاد بن جريج في روايته في قصة الإفك هنا قال: قال ابن عباس: فقال بعضهم لبعض: موعدكم الحرة، أي خارج المدينة لتتقاتلوا هناك.

وقولها: فلم يزل رسول الله ﷺ يخفضهم حتى سكتوا، وفي رواية بن حاطب: فلم يزل يومئ بيده إلى الناس ها هنا حتى هدأ الصوت، وفي رواية فليح: فنزل فخفضهم حتى سكتوا. قال الحافظ: ويحمل على أنه سكّتهم وهو على المنبر، ثم نزل إليهم أيضًا ليكمل تسكيتهم، ووقع في رواية عطاء الخرساني عن الزهري: فحجز بينهم. الفتح: (٨/ ٤٧٥).

وتأمّل حكمة النبي ﷺ في تسكينهم أولًا ثم في طريقته في إذهاب ما قد يعلق بنفوسهم من ضغينة بسبب ذلك الموقف، فقد روى الواقدي في المغازي (٢/ ٤٣٥) قائلًا: ومكث رسول الله ﷺ أيامًا، ــ أي بعد تلك الحادثة ــ ثم أخذ بيد سعد بن معاذ في نفر فخرج يقود به حتى دخل به على سعد بن عبادة، ومن معه فتحدثا عنده ساعة وقرّب سعد بن عبادة طعامًا، فأصاب منه رسول الله ﷺ وسعد بن معاذ ومن معه. ثم خرج رسول الله ﷺ فمكث أيامًا، ثم أخذ بيد سعد بن عبادة، ونفر معه فانطلق به حتى دخل منزل سعد بن معاذ، فتحدثا ساعة وقرّب سعد بن معاذ طعامًا، فأصاب رسول الله ﷺ وسعد بن عبادة ومن معهم. ثم خرج رسول الله ﷺ. وإنما فعل ذلك رسول الله ﷺ لأن يذهب ما كان في أنفسهم من ذلك القول الذي تقاولا.

سَكَتُوا وَسَكَتَ.

قَالَتْ: فَبَكَيْتُ يَوْمِي ذَلِكَ كُلَّهُ، لَا يَرْقَأُ لِي دَمْعٌ، وَلَا أَكْتَحِلُ بِنَوْمٍ! قَالَتْ: وَأَصْبَحَ أَبَوَايَ عِنْدِي، وَقَدْ بَكَيْتُ لَيْلَتَيْنِ وَيَوْمًا، لَا يَرْقَأُ لِي دَمْعٌ، وَلَا أَكْتَحِلُ بِنَوْمٍ، حَتَّى إِنِّي لَأَظُنُّ أَنَّ الْبُكَاءَ فَالِقٌ[1] كَبِدِي!

فَبَيْنَا أَبَوَايَ جَالِسَانِ عِنْدِي وَأَنَا أَبْكِي، فَاسْتَأْذَنَتْ عَلَيَّ امْرَأَةٌ مِنَ الْأَنْصَارِ فَأَذِنْتُ لَهَا، فَجَلَسَتْ تَبْكِي مَعِي[2]، قَالَتْ: فَبَيْنَا نَحْنُ عَلَى ذَلِكَ دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَيْنَا، فَسَلَّمَ، ثُمَّ جَلَسَ[3]. قَالَتْ: وَلَمْ

---

(١) فالق: فاعل، من فلق الشيء، إذا شقه. ومنه قول رب العزة: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ﴾ [الأنعام: ٩٦].

(٢) وساعدتها على البكاء وأسعدتها بماء عيونها امرأة من أولي الوفاء والمواساة والكرم والإيثار ومعالي الشيم؛ الأنصار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ رجالاً ونساءً.

(٣) في رواية هشام بن عروة بلفظ: فأصبح أبواي عندي، فلم يزالا، حتى دخل علي رسول الله ﷺ وقد صلى العصر، وقد اكتنفني أبواي عن يميني وعن شمالي، وفي رواية بن حاطب: وقد جاء رسول الله ﷺ، حتى جلس على سرير وجاهي. وفي حديث أم رومان: أن عائشة في تلك الحالة كانت بها الحمّى النافض، وأن النبي ﷺ لما دخل فوجدها كذلك قال: «**ما شأن هذه؟**» قالت: أخذتها الحمى بنافض. قال: «**فلعلّه في حديث تُحُدِّثَ**» قالت: نعم: فقعدت عائشة. فتح الباري: (٨/ ٤٧٥).

يَجْلِسْ عِنْدِي مُنْذُ قِيلَ مَا قِيلَ قَبْلَهَا. وَقَدْ لَبِثَ شَهْرًا لَا يُوحَى إِلَيْهِ فِي شَأْنِي بِشَيْءٍ[1]. قَالَتْ: فَتَشَهَّدَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ جَلَسَ، ثُمَّ قَالَ: **«أَمَّا بَعْدُ يَا عَائِشَةُ، إِنَّهُ بَلَغَنِي عَنْكِ كَذَا وَكَذَا[2]، فَإِنْ كُنْتِ بَرِيئَةً فَسَيُبَرِّئُكِ اللَّهُ، وَإِنْ كُنْتِ أَلْمَمْتِ بِذَنْبٍ[3]، فَاسْتَغْفِرِي اللَّهَ، وَتُوبِي إِلَيْهِ، فَإِنَّ الْعبد إِذَا اعْتَرَفَ ثُمَّ تَابَ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ»**.

قَالَتْ: فَلَمَّا قَضَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَقَالَتَهُ، قَلَصَ[4] دَمْعِي، حَتَّى مَا أُحِسُّ مِنْهُ قَطْرَةً[5]، فَقُلْتُ لِأَبِي: أَجِبْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنِّي فِيمَا

(١) وذُكر أن المدة كانت سبعة وثلاثين يومًا بإلغاء الكسر في هذه الرواية، وعند بن حزم أن المدة كانت خمسين يومًا أو أزيد، ويجمع بأنها المدة التي كانت بين قدومهم المدينة ونزول القرآن في قصة الإفك، وأما التقييد بالشهر فهو المدة التي أولها إتيان عائشة إلى بيت أبويها حين بلغها الخبر، ذكره الحافظ.

(٢) كذا وكذا: كناية عما رميت به من الإفك، وهذا من الكناية البليغة.

(٣) قولها: ألممت بشيء، وفي رواية: بذنب: هو من الإلمام، وهو النزول النادر غير المتكرر.

(٤) قلص الدمع: انقطع جريانه وارتفع وانقبض. وقال القرطبي: يعني أن الحزن والوجدة قد انتهت نهايتها، وبلغت غايتها، ومهما انتهى الأمر إلى ذلك قلص الدمع لفرط حرارة المصيبة. عمدة القاري (٢٠/ ٣١٣).

(٥) وقلوص دمعها من العَتَبِ.

قَالَ. فَقَالَ أَبِي: وَاللَّهِ مَا أَدْرِي مَا أَقُولُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ. فَقُلْتُ لِأُمِّي: أَجِيبِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِيمَا قَالَ. قَالَتْ أُمِّي: وَاللَّهِ مَا أَدْرِي مَا أَقُولُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ[١]. فَقُلْتُ وَأَنَا جَارِيَةٌ حَدِيثَةُ السِّنِّ، لَا أَقْرَأُ مِنْ الْقُرْآنِ كَثِيرًا: إِنِّي وَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُ لَقَدْ سَمِعْتُمْ هَذَا الْحَدِيثَ، حَتَّى اسْتَقَرَّ فِي أَنْفُسِكُمْ، وَصَدَّقْتُمْ بِهِ[٢]. فَلَئِنْ قُلْتُ لَكُمْ: إِنِّي بَرِيئَةٌ، لَا تُصَدِّقُونِي[٣].

---

(١) قولها: قال: والله ما أدري ما أقول: أي أن الأمر الذي سألها رسول الله ﷺ لا يقف منه على أمر زائد على ما عند رسول الله ﷺ قبل نزول الوحي من حسن الظن.
قال النووي: قولها لأبويها: أجيبا عنّي. فيه تفويض الكلام إلى الكبار، لأنهم أعرف بمقاصده، واللائق بالمواطن منه، وأبواها يعرفان حالها. شرح مسلم: (١٧/ ١١٢).

(٢) قالت هذا وإن لم يكن على حقيقته على سبيل المقابلة، لِمَا وقع من المبالغة في التنقيب عن ذلك، وهي كانت لِمَا تحقّقته من براءة نفسها، ومنزلتها، تعتقد أنه كان ينبغي لكل من سمع عنها ذلك أن يقطع بكذبه، لكن العذر لهم عن ذلك، أنهم أرادوا إقامة الحجة على من تكلّم في ذلك، ولا يكفي فيها مجرد نفي ما قالوا والسكوت عليه، بل تعيّن التنقيب عليه لقطع شبههم، أو مرادها بمن صدّق به من أصحاب الإفك، لكن ضمت إليه من لم يكذبهم تغليبًا. الفتح: (٨/ ٤٧٦)

(٣) أي لا تقطعون بصدقي.

وَلَئِنْ اعْتَرَفْتُ لَكُمْ بِأَمْرٍ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَنِّي مِنْهُ بَرِيئَةٌ لَتُصَدِّقُنِّي(١). فَوَاللَّهِ لَا أَجِدُ لِي وَلَكُمْ مَثَلًا إِلَّا أَبَا يُوسُفَ حِينَ قَالَ: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨].

ثُمَّ تَحَوَّلْتُ(٢)، وَاضْطَجَعْتُ عَلَى فِرَاشِي، وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَنِّي حِينَئِذٍ

---

(١) ويذكرنا هذا بقول كعب بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بين يدي رسول الله ﷺ حين قفل من تبوك وسأله عن تخلّفه فقال: يا رسول الله، إني والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أني سأخرج من سخطه بعذر، ولقد أُعطيتُ جدلًا، ولكني والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عنّي؛ ليوشكنّ الله أن يسخطك عليّ، ولئن حدّثتك حديث صدق تجد علي فيه؛ إنّي لأرجو فيه عقبى الله، والله ما كان لي عذر، والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر منى حين تخلّفت عنك. قال رسول الله ﷺ: «**أما هذا فقد صدق**» متفق عليه، وفيه تعلق الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ بالله، وشديد مراقبتهم له.

(٢) قولها: إلا أبا يوسف: أي إلا مثل يعقوب عليه الصلاة والسلام، وهو الصبر، وكأنها من شدة حزنها لم تتذكر اسم يعقوب، وإنما قالت أبا يوسف لأنه لما جاء إخوة يوسف أباهم يعقوب ومعهم قميص يوسف بدم كذب قال يعقوب: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨] وفي رواية أبي أويس: نسيت اسم =

بَرِيئَةٌ، وَأَنَّ اللَّهَ مُبَرِّئِي بِبَرَاءَتِي، وَلَكِنْ وَاللَّهِ مَا كُنْتُ أَظُنُّ أَنَّ اللَّهَ مُنْزِلٌ فِي شَأْنِي وَحْيًا يُتْلَى، لَشَأْنِي فِي نَفْسِي كَانَ أَحْقَرَ مِنْ أَنْ يَتَكَلَّمَ اللَّهُ فِيَّ بِأَمْرٍ، وَلَكِنْ كُنْتُ أَرْجُو أَنْ يَرَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي النَّوْمِ رُؤْيَا يُبَرِّئُنِي اللَّهُ بِهَا. فَوَاللَّهِ مَا رَامَ[1] رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَجْلِسَهُ، وَلَا خَرَجَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ حَتَّى أُنْزِلَ عَلَيْهِ، فَأَخَذَهُ مَا كَانَ يَأْخُذُهُ مِنَ الْبُرَحَاءِ[2]،

= يعقوب، لما بي من البكاء واحتراق الجوف.

تحولت: حولت وجهي عنهم وأدرته للجدار.

(١) ما رام: أي ما برح من مكانه، يقال: رام يريم: إذا برح وزال، وقلّما يستعمل إلا في النفي. والمراد: أي ما فارق مجلسه.

(٢) البرحاء: الشدة، وهي هنا بسبب ثقل الوحي، فقد كان إذا ورد عليه الوحي، يجد له مشقّة، ويغشاه الكرب لثقل ما يُلقى عليه، كما قال عز وجل: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ ولذلك كان يعتريه مثل حال المحموم، كما روي أنه كان يأخذه عند الوحي الرُّحَضاءُ، أي البهر والعرق من الشدة، وأكثر ما يسمّى به عَرَقُ الحُمّى، ولذلك كان جبينه يتفصَّدُ عرقًا كما يُفصد. وإنما كان ذلك ليبلوَ صبرَهُ، ويحسن تأديبه، فيرتاض لاحتمال ما كلفه من أعباء النبوة.

وقد ذكر البخاري في حديث يعلى بن أمية «فأدخل رأسه، فإذا رسول الله محمرُّ الوجه، وهو يغطُّ، ثم سُرِّيَ عنه» ومنه في حديث عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كان نبي الله ﷺ إذا أنزل عليه كَرب لذلك، =

حَتَّى إِنَّهُ لَيَتَحَدَّرُ مِنْهُ مِنْ الْعَرَقِ مِثْلُ الْجُمَانِ[1]، وَهُوَ فِي يَوْمٍ شَاتٍ، مِنْ ثِقَلِ الْقَوْلِ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَيْهِ.

قَالَتْ: فَسُرِّيَ[2] عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ يَضْحَكُ، فَكَانَتْ أَوَّلَ

= وتربَّدَ وجهه. وفي حديث الإفك هنا وصفٌ آخر لذلك.

وقال الخطابي: البرحاء: شدّة الكرب، مأخوذ من قولك: برحت بالرجل، إذا بلغتَ به غاية الأذى والمشقّة. ويقال: لقيت منه البرح.

قال الحافظ في سياق حديث الإفك: وفي رواية ابن إسحاق: فسجِّيَ بثوب، ووضعت تحت رأسه وسادة من أدم. وزاد بن جريج في روايته: قال أبو بكر: فجعلتُ أنظر إلى رسول الله ﷺ أخشى أن ينزل من السماء ما لا مردّ له، وأنظر إلى وجه عائشة فإذا هو منبقٌ فيطمعني ذلك فيها. وفي رواية بن إسحاق: فأما أنا فوالله ما فزعت، قد عرفت أني بريئة، وأن الله غير ظالمي، وأما أبواي فما سُرِّيَ عن رسول الله ﷺ حتى ظننت لتخرجن أنفسهما فرقًا من أن يأتي من الله تحقيق ما يقول الناس. الفتح: (٨/ ٤٧٧).

(١) الجمان: جمع جمانة:وهي اللؤلؤة، وهي الدّرّ، وقيل: هي خرزة تُعمل من الفضة مثل الدرة. وقد شبّهت قطرات عرقه ﷺ بحبّات اللؤلؤ في الصفاء والحسن. قال الجواليقي: وقد جعل لبيدٌ الدُّرَّةَ جُمانة فقال: كجمانة البحري سُلَّ نظامها. عمدة القاري (٢٠/ ٣١٤).

(٢) سري عنه: أي كشف وأُزِيلَ عنه.

كَلِمَةٍ تَكَلَّمَ بِهَا أَنْ قَالَ: «**يَا عَائِشَةُ، أَمَّا اللَّهُ فَقَدْ بَرَّأَكِ**»[1] قَالَتْ: فَقَالَتْ لِي أُمِّي: قُومِي إِلَيْهِ، فَقُلْتُ: وَاللَّهِ لَا أَقُومُ إِلَيْهِ[2]، فَإِنِّي لَا أَحْمَدُ إِلَّا اللَّهَ

---

(١) وفي رواية ابن حاطب: فوالذي أكرمه وأنزل عليه الكتاب ما زال يضحك، حتى إني لأنظر إلى نواجذه سرورًا، ثم مسح وجهه. قال ابن دحية: ونزل عذرها بعد سبع وثلاثين ليلة.

(٢) أي قالت لها أمها: قومي فاحمديه، وقبلي رأسه، واشكريه لنعمة الله تعالى التي بشرّك. فقالت ما قالت. قال ابن الجوزي: فعلت ذلك دلالا كما يدل الحبيب على الحبيب. وقال النووي: قالت ذلك إدلالًا عليهم، وعتابًا، لكونهم شكّوا في حالها مع علمهم بحسن طرائقها، وجميل أحوالها، وتنزهّها عن هذا الباطل الذي افتراه الظلمة، ولا حجة لهم ولا شبهة فيه. قالت: وإنما أحمد ربي سبحانه وتعالى، الذي أنزل براءتي، وأنعم علي بما لم أكن أتوقّعه. النووي على مسلم (١٧/ ١١٣).

وقال ابن القيم في الزاد عند ذكر الحكم الربّانية الجليلة من تلك الحادثة وقول الصديقة ما قالت: علم معرفَتها، وقوةَ إيمانها، وتوليتها النعمة لربِّها، وإفرادَه بالحمد في ذلك المقَام، وتجريدَها التوحيد، وقوةَ جأشها، وإدلالَها ببراءة ساحتها، وأنها لم تفعل ما يُوجب قيامَها في مقام الراغب في الصُّلح، الطالب له، وثقتها بمحبة رسولِ اللهِ ﷺ لها قالت ما قالت، إدلالاً للحبيب على حبيبه، ولا سيما في مثل هذا المقام الذي هو أحسنُ مقامات الإدلال، فوضعتهُ موضِعَه، ولله ما كان أحبَّها إليه حين قالت: =

عَزَّ وَجَلَّ. قَالَتْ وَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ [النور: ١١-٢٠] الْعَشْرَ الْآيَاتِ(١)، ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ هَذَا فِي بَرَاءَتِي.

قَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ ـ وَكَانَ يُنْفِقُ عَلَى مِسْطَحِ بن أُثَاثَةَ لِقَرَابَتِهِ مِنْهُ وَفَقْرِهِ ـ: وَاللَّهِ لَا أُنْفِقُ عَلَى مِسْطَحٍ شَيْئًا أَبَدًا، بَعْدَ الَّذِي قَالَ لِعَائِشَةَ(٢) مَا

= «لا أَحْمَدُ إلا الله، فإنه هو الذي أنزل براءتي» ولله ذلك الثباتُ والرزانةُ منها، وهو أحبُّ شيء إليها، ولا صبرَ لها عنه، وقد تنكَّر قلبُ حبيبها لها شهراً، ثم صادفَتِ الرِّضى منه والإقبال، فلم تُبادِرْ إلى القيام إليه، والسرور برضاه وقربه مع شدة محبتها له.

(١) على طريق إلغاء الكسر، لأنها ثلاث عشرة آية.

قال الزمخشري في شأن آيات قصة الإفك: لم يقع في القرآن من التغليظ في معصية ما وقع في قصة الإفك، بأوجز عبارة وأشبعها، لاشتماله على الوعيد الشديد، والعتاب البليغ، والزجر العنيف، واستعظام القول في ذلك، واستشناعه بطرق مختلفة، وأساليب متقنة، كل واحد منها كاف في بابه. بل ما وقع منها من وعيد عبدة الأوثان، إلا بما هو دون ذلك، وما ذلك إلا لإظهار علو منزلة رسول الله ﷺ، وتطهير من هو منه بسبيل. نقله عنه الحافظ في الفتح: (٨/ ٤٧٨) قلت: وفي قوله بأنه لم يأت لأهل الوعيد مثله فيه نظر، بل قد قد جاء أشدّ منه وأعظم وعيدًا لأهل الشرك ولأهل النفاق.

(٢) أي عنها.

قَـــالَ، فَـــأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْـلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينَ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النور: ٢٢][١] قَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ: بَـلَى، وَاللَّهِ إِنِّي لَأُحِبُّ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لِي. فَرَجَعَ إِلَى مِسْطَحٍ النَّفَقَةَ الَّتِي كَانَ يُنْفِقُ عَلَيْهِ، وَقَالَ: وَاللَّهِ لَا أَنْزِعُهَا مِنْهُ أَبَدًا[٢]. قَالَتْ عَائِشَةُ: وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَأَلَ زَيْنَبَ[٣] بِنْتَ جَحْشٍ عَنْ أَمْرِي، فَقَالَ لِزَيْنَبَ:

---

(١) ولا يأتَل: يأتل: يفتعل، من الأَلية، وهي القسم، يقال: آلى وائتلى وتألّى. جامع الأصول في أحاديث الرسول لمجد الدين ابن الجزري. (٢/ ٢٧٢).

(٢) ووقع عند الطبراني أنه صار يعطيه ضعف ما كان يعطيه قبل ذلك. وقد أخرج الحاكم من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال أبو بكر يعاتب مسطحًا في قصة عائشة: يا عوف، ويحك، هل لا قلت عارفة من الكلام، ولم تبتغ به طعمًا؟! وكان هو وأمه من المهاجرين الأولين، وكان أبوه مات وهو صغير، فكفله أبو بكر، لقرابة أم مسطح منه. شرح البخاري لابن بطال: (٨/ ٤٢).

(٣) زينب بنت جحش الأسدية، أم المؤمنين، زوج النبي ﷺ، وكانت قبله عند مولاه زيد بن حارثة، وبسببها نزلت آية الحجاب.
وفي الصحيحين عن عائشة قال النبي ﷺ: «**أسرعكن لحاقًا بي أطولكم يدًا**»، فكانت أول نسائه لحوقًا به، لأنها كانت تعمل بيدها وتتصدق. قال =

«مَـاذَا عَلِمْـتِ، أَوْ رَأَيْـتِ؟» فَقَالَـتْ: يَـا رَسُـولَ اللَّهِ، أَحْمِـي سَـمْعِي وَبَصَرِي[١]، وَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ إِلَّا خَيْرًا. قَالَتْ عَائِشَةُ: وَهِيَ الَّتِي كَانَتْ تُسَامِينِي[٢] مِنْ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ، فَعَصَمَهَا اللَّهُ بِالْوَرَعِ[٣]. قَالَـتْ: وَطَفِقَتْ أُخْتُهَا حَمْنَةُ تُحَارِبُ لَهَا[٤]، فَهَلَكَتْ فِيمَنْ هَلَكَ[٥].

قَالَ ابْنُ شِهَابٍ: فَهَذَا الَّذِي بَلَغَنِي مِنْ حَدِيثِ هَؤُلَاءِ الرَّهْطِ، ثُمَّ قَالَ عُرْوَةُ: قَالَتْ عَائِشَةُ: وَاللَّهِ إِنَّ الرَّجُلَ الَّذِي قِيلَ لَهُ مَا قِيلَ، لَيَقُولُ:

= ابن عبد البر: كان اسمها برة، فلما دخلت على رسول الله سماها زينب. وانظر ترجمتها في: الاستيعاب ص: ١٨٤٩، والإصابة (٦٦٧/٧ ـ ٦٧٠).

(١) أحمي سمعي وبصري: أي أصونهما وأمنعهما من أن أنسب إليهما ما لم يدركاه، فلا أقول سمعت ولم أسمع، وأبصرت ولم أبصر.

(٢) تساميني: من المساماة، من السمو والعلو، أي أنها تطلب من السمو والعلو والحظوة مثل الذي أطلب. والمراد أي تفاخرني وتضاهيني بجمالها ومكانها عند النبي ﷺ، وتعتقد أن الذي لها عنده مثل الذي لي عنده.

(٣) فعصمها الله بالورع: أي منعها به عما لا يحل.

(٤) أي تجادل لها، وتتعصّب، وتحكي ما قال أهل الإفك، لتنخفض منزلة عائشة وتعلو مرتبة أختها زينب.

(٥) قلت: وقد طهّرها الله بالحدّ، والتوبة تجبّ ما قبلها، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

سُبْحَانَ اللَّهِ فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، مَا كَشَفْتُ مِنْ كَنَفِ[1] أُنْثَى قَطُّ! قَالَتْ: ثُمَّ قُتِلَ بَعْدَ ذَلِكَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ.

---

(١) قوله: ما كشفت من كنف أنثى: الكنف: هو الستر ويراد به كذلك الجانب، والمراد: ما كشفت على امرأة ما سترته من نفسها، إشارة إلى التعفّف. ومنه ما جاء في حديث النجوى عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مرفوعًا: «**يدني الله عز وجلّ عبده يوم القيامة حتى يضع عليه كنفه**» أي ستره. فالكنف عند الإطلاق هو الستر. قال ثابت: الكنف هاهنا هو الثوب الذي يكنفها، أي: يسترها، ومنه قولهم: هو في حفظ الله وكنفه. قال أبو حاتم: وبعض العرب يقول: أنت في كنفي. وكنفا الطائر: جناحاه. ذكره الخطابي.

وقيل: إنه كناية عن عدم جماع النساء جميعهن ومخالطتهن. قال الحافظ ــ وهو ابن حجر عند الإطلاق ــ:في رواية سعيد بن أبي هلال عن هشام بن عروة في قصة الإفك أن الرجل الذي قيل فيه ما قيل لما بلغه الحديث قال: والله ما أصبت امرأة قطّ حلالًا ولا حرامًا. وفي حديث ابن عباس عند الطبراني: وكان لا يقرب النساء. فالذي يظهر أن مراده بالنفي المذكور ما قبل هذه القصة، ولا مانع من أن يتزوج بعد ذلك، فهذا الجمع لا اعتراض عليه إلا بما جاء عن ابن إسحاق أنه كان حصورًا ــ أي لا يأتي النساء لنقص آلته ــ لكنه لم يثبت، فلا يعارض الحديث الصحيح.

وَقَال البُخاري: حَدَّثَنَا مُوسَى بن إِسْمَاعِيلَ، حَدَّثَنَا أَبُو عَوَانَةَ، عَنْ حُصَيْنٍ، عَنْ أَبِي وَائِلٍ قَالَ: حَدَّثَنِي مَسْرُوقُ بن الْأَجْدَعِ[1] قَالَ: حَدَّثَتْنِي أُمُّ رُومَانَ[2] ـ وَهِيَ أُمُّ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ قَالَتْ: بَيْنَا أَنَا قَاعِدَةٌ أَنَا وَعَائِشَةُ، إِذْ وَلَجَتْ امْرَأَةٌ مِنْ الْأَنْصَارِ فَقَالَتْ: فَعَلَ اللَّهُ بِفُلَانٍ وَفَعَلَ[3]، فَقَالَتْ أُمُّ رُومَانَ: وَمَا ذَاكَ؟ قَالَتْ: ابْنِي فِيمَنْ حَدَّثَ

---

(١) مسروق بن الأجدع بن مالك بن أمية الهمداني الكوفي. تابعي فقيه ثبت، روى عن أبي بكر وعمر وعثمان وعلي ومعاذ وعائشة وأمها أم رومان. وعنه الشعبي والنخعي ومكحول الشامي وأبو إسحاق السبيعي. توفي عام (٦٣)هـ. وانظر ترجمته في: تهذيب التهذيب: (١٠/١٠٩-١١١) والتقريب: (٦٦٠١).

(٢) وقد تكلم الخطيب في سماع مسروق من أُمّ رومان واستبعده؛ لاعتماد الخطيب على رواية ضعيفة تفيد بوفاتها سنة تسع، وقد ردّ الحافظ ابن حجر ذلك، وأثبت أنها عُمّرت، ورجح أن مسروقاً سمع منها في خلافة عمر.

وانظر: فتح الباري (٧/٥٥٦ – ٥٥٧). زاد المعاد (٣/٢٦٦ – ٢٦٧)، الفجر الساطع على الصحيح الجامع (٣/ ١٠١).

(٣) فعل الله بفلان: أي ولدها، ولم يُسمّ من الأنصار غير حسان وابن أبيّ، ولم تكن أميهما على قيد الحياة حينها، إلا إن قصدت الرضاع ونحوه، ذكره القسطَلّاني. وقال ابن حجر: ولم أقف على اسمه ولا على اسم أمه، =

الْحَدِيثَ، قَالَتْ: وَمَا ذَاكَ؟ قَالَتْ: كَذَا وَكَذَا! قَالَتْ عَائِشَةُ: سَمِعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ؟ قَالَتْ: نَعَمْ. قَالَتْ: وَأَبُو بَكْرٍ؟ قَالَتْ: نَعَمْ. فَخَرَّتْ مَغْشِيًّا عَلَيْهَا، فَمَا أَفَاقَتْ إِلَّا وَعَلَيْهَا حُمَّى بِنَافِضٍ، فَطَرَحْتُ عَلَيْهَا ثِيَابَهَا فَغَطَّيْتُهَا[1]. فَجَاءَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: «**مَا شَأْنُ هَذِهِ؟**» قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَخَذَتْهَا الْحُمَّى بِنَافِضٍ. قَالَ: «**فَلَعَلَّ فِي حَدِيثٍ تُحُدِّثَ بِهِ؟**» قَالَتْ: نَعَمْ. فَقَعَدَتْ عَائِشَةُ فَقَالَتْ: وَاللَّهِ لَئِنْ حَلَفْتُ، لَا تُصَدِّقُونِي، وَلَئِنْ

= وهي غير المرأة التي دخلت على عائشة وبكت معها، وطريق الجمع بين هذه الرواية وبين غيرها: أنها سمعت الخبر أولًا من أم مسطح، فسمعته منها أولًا مجملًا، ثم سمعته من أمّها كذلك، ثم أخبرتها الأنصارية بحضرة أمها، فحصل القطع بوقوع ذلك الحديث.

(١) وفي رواية الأسود عن عائشة: فألقت على أمي كل ثوب في البيت.

قال البقاعي في نظم الدرر (٥/ ٢٤٢): واستمر أهل الإفك في هذا أكثر من شهر، والله تعالى عالم بما يقولون، وبأن قولهم يكاد يقطع أكباد أحب خلقه إليه، وهو قادر على تكذيبهم عند أول ما خاضوا فيه، ولكنه سبحانه أراد لناس رفعة الدرجات، ولآخرين الهلاك، فيا لله ما لقي النبي ﷺ والصديق وآله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وكل من أحبهم، وهم خير الناس، والله سبحانه وتعالى يُملي للأفّاكين ويمهلهم، وكأن الحال كما قال أبو تمام الطائي:

كذا فليجلّ الخَطْبُ وليفدح الأمرُ   فليس لعينٍ لم يفض ماؤها عذرُ

قُلْتُ، لَا تَعْذِرُونِي، مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ كَيَعْقُوبَ وَبَنِيهِ: ﴿وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨] قَالَتْ: وَانْصَرَفَ، وَلَمْ يَقُلْ شَيْئًا. فَأَنْزَلَ اللَّهُ عُذْرَهَا. قَالَتْ: بِحَمْدِ اللَّهِ، لَا بِحَمْدِ أَحَدٍ، وَلَا بِحَمْدِكَ.

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: باب قول الله تعالى: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُواْ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُوْلَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ وَذَكَرَ حديثَ عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا(١).

---

(١) قال الله تعالى: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُواْ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُوْلَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النور: ١٢ - ١٩].

=

= قال البقاعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في نظم الدرر: ولما أخبر سبحانه وتعالى بعقابهم، وكان من المؤمنين من سمعه فسكت، وفيهم من سمعه فتحدث به متعجباً من قائله، أو مستثباً في أمره، ومنهم من كذبه، أتبعه سبحانه بعتابهم، في أسلوب خطابهم، مثنياً على من كذّبه فقال مستأنفاً محرضاً: ﴿لَّوۡلَآ﴾ أي: هلّا ولم لا، إذ سمعتموه، ولما كان هذا الإفك قد تمالأ عليه رجال ونساء قال: ﴿ظَنَّ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ أي منكم، والمؤمنات، وكان الأصل ظننتم، ولكنه التفت إلى الغيبة تنبيهاً على التوبيخ، وصرح بالنساء، ونبه على الوصف المقتضي لحسن الظن تخويفاً للذي ظن السوء من سوء الخاتمة: ﴿بِأَنفُسِهِمۡ﴾ حقيقة خيراً، وهم دون من كذب عليها، فقطعوا ببراءتها لأن الإنسان لا يظن بالناس إلا ما هو متصف به أو بإخوانهم، لأن المؤمنين كالجسد الواحد، أو ظنوا ما يظن بالرجل لو خلا بأمه، وبالمرأة إذا خلت بابنها، فإن نساء النبي ﷺ أمهات المؤمنين ــ قلت: ولعل المراد وصف المؤمنين بالنفس الواحدة، ولها شواهد قرآنية كقوله تعالى: ﴿وَأَصۡلِحُواْ ذَاتَ بَيۡنِكُمۡۖ﴾ فسماها ذاتًا بالإفراد، مع أنهم لا يُحصون كثرة ـ.

﴿وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفۡكٌ﴾ أي كذب عظيم ﴿مُّبِينٌ﴾ أي واضح في نفسه، موضح لغيره، وبيانه وظهوره أن المرتاب يكاد يقول: خذوني، فهو يسعى في التستر جهده، فإتيان صفوان بعائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهَا راكبة على جمله داخلاً به الجيش في نحر الظهيرة، والناس كلهم يشاهدون ورسول الله ﷺ =

= بين أظهرهم، ينزل عليه الوحي، إدلالاً بحسن عمله، غافلاً عما يظن به أهل الريب، أدلّ دليل على البراءة وكذب القاذفين، ولقد عمل أبو أيوب الأنصاري وصاحبته رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا بما أشارت إليه هذه الآية.

ثم علّل سبحانه بيان كذب الآفكين بأن قال موبخاً لمن اختلقه وأذاعه، ملقّناً لمن ندبه على ظنّ الخير: ﴿لَّوْلَا﴾ أي: هلا، ولم لا، ﴿جَآءُو﴾ أي: المفترون له أولاً ﴿عَلَيْهِ﴾ إن كانوا صادقين ﴿بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾ فالقذف لا يباح إلا بها . ولما لم يأتوا بالشهداء كذّبهم فقال: ﴿فَإِذْ﴾ أي: فحين ﴿لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ﴾ أي الموصوفين ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ﴾ أي: البعداء من الصواب ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: في حكم الملك الأعلى، بل وفي هذه الواقعة بخصوصها في علمه ﴿هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ أي الكذب العظيم ظاهراً وباطناً.

ولما بين لهم بإقامة الدليل على كذب الخائضين في هذا الكلام أنهم استحقوا الملام، وكان ذلك مرغباً لأهل التقوى، بين أنهم استحقوا بالتقصير في الإنكار عموم الانتقام في سياق مبشر بالعفو فقال عاطفاً على ﴿وَلَوْلَا﴾ الماضية ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ أي: معاملته لكم بمزيد الإنعام اللازم للرحمة ﴿فِى ٱلدُّنْيَا﴾ بقبول التوبة، والمعاملة بالحلم ﴿وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ بالعفو عمن يريد أن يعفو عنه منكم ﴿لَمَسَّكُمْ﴾ أي عاجلاً ﴿فِى مَآ أَفَضْتُمْ﴾ أي اندفعتم على أي وجه كان ﴿فِيهِ﴾ بعضكم بالقول، وبعضكم بعدم الإنكار ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي يحتقر معه اللوم والجلد، بأن =

= يهلَكَ فيتّصل به عذاب الآخرة؛ ثم بين وقت حلوله وزمان تعجيله بقوله: ﴿إِذْ﴾ أي مسكم حين ﴿تَلَقَّوْنَهُۥ﴾ أي تجتهدون في تلقّي قبول هذا الكلام الفاحش وإلقائه ﴿بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾ بإشاعة البعض، وسؤال آخرين، وسكوت آخرين ﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم﴾ تصوير لمزيد قبحه، وإشارة إلى أنه قولٌ لا حقيقة له، فلا يمكن ارتسامه في القلب بنوع دليل؛ وأكد هذا المعنى بقوله: ﴿مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾ أي بوجه من الوجوه، وتنكيره للتحقير ﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ﴾ بدليل سكوتكم عن إنكاره ﴿هَيِّنًا وَهُوَ﴾ أي والحال أنه ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: الذي لا يبلغ أحد مقدار عظمته ﴿عَظِيمٌ﴾ أي في حدّ ذاته، ولو كان في غير أم المؤمنين رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، فكيف وهو في جنابها المصون، وهي زوجة خاتم الأنبياء وإمام المرسلين عليه أفضل الصلاة وأفضل التسليم؟!

ولما بين فحشه وشناعته، وقبحه وفظاعته، عطف على التأديب الأول في قوله: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾ تأديباً فقال: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم﴾ أي حين سماعه من غير توقف ولا تلعثم، وفصل بين آلة التحضيض والقول المحضّض عليه بالظرف؛ لأن الظروف تنزل من الشيء منزلة نفسه لوقوعه فيها، وأنها لا انفكاك لها عنه، ولأن ذكره منبه على الاهتمام به، لوجوب المبادرة على المحضض عليه: ﴿مَّا يَكُونُ﴾ أي ما ينبغي وما يصح ﴿لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا﴾ أي بمثله في حق أدنى الناس، فكيف بمن اختارها العليم الحكيم لصحبة أكمل الخلق، تعجباً من أن يخطر بالبال، في حال من الأحوال. =

= ولما كان تنزيه الله تعالى في مثل ذلك وإن كان للتعجب، إشارة إلى تنزيه المقام الذي وقع فيه التعجب تنزيهًا عظيماً؛ حسن أن يوصل بذلك قوله تعليلاً للتعجب والنفي: ﴿هَٰذَا بُهْتَٰنٌ﴾ أي كذب يبهت من يواجه به، ويحيره لشدة ما يفعل في القوى الباطنة، لأنه في غاية الغفلة عنه، لكونه أبعد الناس منه؛ ثم هوّله بقوله: ﴿عَظِيمٌ﴾ والمراد: أن الذي ينبغي للإنسان أولاً أن لا يظن بإخوانه المؤمنين ولا يسمع فيهم إلا خيراً، فإن غلبه الشيطان وارتسم شيء من ذلك في ذهنه فلا يتكلم به، بل يبادر إلى تكذيبه.

ولمّا كان هذا كله وعظاً لهم واستصلاحاً، أردفه بقوله: ﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي ما دمتم أهلاً لسماع هذا القول، فقد عظّم هذا الوعظ، وألهب سامعه بقوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي متصفين بالإيمان، راسخين فيه، فإنكم لا تعودون، فإن عدتم فأنتم غير صادقين في دعواكم الاتصاف به ﴿وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ﴾ أي بما له من الاتصاف بصفات الجلال والإكرام ﴿لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ أي العلامات الموضحة للحق والباطل من كل أمر ديني أو دنيوي ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ فثقوا ببيانه ﴿حَكِيمٌ﴾ لا يضع شيئاً إلا في أَحْكَمِ مواضعه وإن دقَّ عليكم فهم ذلك، فلا تتوقفوا في أمر من أوامره، واعلموا أنه لم يختر لنبيه عليه الصلاة والسلام إلا الخُلَّصَ من عباده، على حسب منازلهم عنده، وقربهم من قلبه. =

= ولما كان من أعظم الوعظ بيان ما يستحق على الذنب من العقاب، أدبهم تأديباً ثالثاً أشد من الأولين، فقال واعظاً ومقبّحاً لحال الخائضين في الإفك ومحذراً ومهدداً: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ ﴾ عبّر بالحب إشارة إلى أنه لا يرتكب هذا مع شناعته إلا محب له، ولا يحبه إلا بعيد عن الاستقامة ﴿أَن تَشِيعَ﴾ أي تنتشر بالقول أو بالفعل ﴿ٱلْفَٰحِشَةُ﴾ أي الفعلة الكبيرة القبح ﴿فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ ولو كانوا في أدنى درجات الإيمان، فكيف بمن تسنّم ذروته، وتبوّأ غايته؟! ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ردعاً لهم عن إرادة إشاعة مثل ذلك، لما فيه من عظيم الأذى ﴿فِى ٱلدُّنْيَا﴾ بالحد وغيره مما ينتقم الله منهم به ﴿وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ فإن الله يعلم هل كفّر الحدُّ عنهم جميع مرتكبهم أم لا؟ ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ﴾ أي له العلم التام، فهو يعلم مقادير الأشياء ما ظهر منها وما بطن، وما الحكمة في ستره أو إظهاره أو غير ذلك من جميع الأمور ﴿وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي ليس لكم علم من أنفسكم، فاعلموا بما علمكم الله، ولا تتجاوزوه تضلوا.

ثم قال تعالى: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾ وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ =

= ﴿ٱللَّهِ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فإنه سبحانه لمّا ختم بالحكم عليهم بالجهل، وكان التقدير كما أرشد إليه ما يأتي من العطف على غير معطوف: فلولا فضل الله عليكم ورحمته بكم لعجّل هلاك المحبين لشيوع ذلك بعذاب الدنيا، ليكون موصولاً بعذاب الآخرة؛ عطف عليه قولَهُ مكرراً التذكير بالمِنَّة بترك المعاجلة حاذفاً الجواب، منبهاً بالتكرير والحذف إلى قوة المبالغة وشدة التهويل: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ بكم ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ﴾ أي ولولا أن الله الذي له القدرة التامة، فسبقت رحمته غضبه ﴿رَءُوفٌ﴾ بكم في نصب ما يزيل جهلكم، بإرسال الرسل وإنزال الكتب ونصب الحدود الزاجرة عن الجهل، الحاملة على التقوى، التي هي ثمرة العلم، ﴿رَّحِيمٌ﴾ بما يثبت لكم من الدرجات على ما منحكم به من ثمرات ذلك الحفظ من الأعمال المرضية، والجواب محذوف تقديره: لترككم في ظلمات الجهل تعمهون، فثارت بينكم الفتن حتى تفانيكم، ووصلتم إلى العذاب الدائم بعد الهم اللازم.

ولما أخبرهم بأنه ما أنزل لهم هذا الشرع على لسان هذا الرسول الرؤوف الرحيم إلا رحمة لهم، بعد أن حذرهم موارد الجهل، نهاهم عن التمادي فيه، في سياق معلم أن الداعي إليه الشيطان العدو، فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِۚ﴾ أي لا تقتدوا به، ولا تسلكوا مسالكه التي يحمل على سلوكها بتزيينها في شيء من الأشياء، وكأنه أشار بصيغة الافتعال إلى العفو عن الهفوات. =

= ولما كان التقدير: فإنه من يتنكّب عن طريقه يأت بالحسنى والمعروف، عطف عليه قوله: ﴿وَمَن يَتَّبِعْ﴾ أي بعزم ثابت من غير أن يكون مخطئاً أو ناسياً؛ وأظهر ولم يضمر لزيادة التنفير فقال: ﴿خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ أي ويقتد به يقع في مهاوي الجهل الناشئ عنها كل شر ﴿فَإِنَّهُۥ﴾ أي الشيطان ﴿يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ وهو ما لم يجوزه الشرع، فهو أولاً يقصد أعلى الضلال، فإن لم يصل تنزّل إلى أدناه، وربما درج بغير ذلك، ومن المعلوم أن من اتّبع مَنْ هذا سبيلُه عَمِلَ بعمله، فصار في غاية السفول، وهذا الإظهار أشد في التنفير من الإضمار بإعادة الضمير.

ولما كان التقدير: فلولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان مع أمره بالقبائح، عطف عليه قوله: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ أي بتطهير نفوسكم ورفعها من الدنايا إلى المعالي ﴿وَرَحْمَتُهُۥ﴾ لكم بإكرامكم ورفعتكم بشرع التوبة المكفرة لما جرّ إليه الجهل من ناقص الأقوال وسفاف الأفعال ﴿مَا زَكَىٰ مِنكُم﴾ أي طهر ونما، وأكّد الاستغراق بقوله: ﴿مِّنْ أَحَدٍ﴾ وعمّ الزمان بقوله: ﴿أَبَدًا﴾ ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ﴾ من عباده، من جميع أدناس نفسه وأمراض قلبه، وإن كان العباد وأخلاقهم في الانتشار والكثرة بحيث لا يحصيهم غيره، فلذلك زكّى منكم من شاء فصانه عن هذا الإفك، وخذل من شاء. =

= ثم ختم الآية بما لا تصح التزكية بدونه فقال: ﴿وَٱللَّهُ﴾ أي الذي له جميع صفات الكمال ﴿سَمِيعٌ﴾ أي لجميع أقوالهم ﴿عَلِيمٌ﴾ بكل ما يخطر في بالهم، وينشأ عن أحوالهم وأفعالهم، فهو خبير بمن هو أهل للتزكية ومن ليس بأهل لها، فاشكروا الله على تزكيته لكم من الخوض في مثل ما خاض فيه غيركم ممن خذله نوعاً من الخذلان، واصبروا على ذلك منهم، ولا تقطعوا إحسانكم عنهم، فإن ذلك يكون زيادة في زكاتكم، وسبباً لإقبال من علم فيه الخير منهم، فقبلت توبته، وغسلت حوبته، وهذا المراد من قوله: ﴿ وَلَا يَأْتَلِ ﴾ أي يحلف مبالغاً في اليمين ﴿أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ﴾ الذين جعلتهم بما آتيتهم من العلم والأخلاق الصالحة أهلاً لبرّ غيرهم ﴿وَٱلسَّعَةِ﴾ أي بما أوسعت عليهم في دنياهم.

ولما كان السياق والسباق واللحاق موضحاً للمراد؛ لم يحتج إلى ذكره أداة النفي فقال: ﴿أَن يُؤْتُوٓاْ﴾ ثم ذكر الصفات المقتضية للإحسان فقال: ﴿أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ﴾ وعددها بأداة العطف تكثيراً لها وتعظيماً لأمرها، وإشارة إلى أن صفة منها كافية في الإحسان، فكيف إذا اجتمعت؟! فقال سبحانه: ﴿وَٱلْمَسَٰكِينَ﴾ أي الذين لا يجدون ما يغنيهم وإن لم تكن لهم قرابة ﴿وَٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ لأهلهم وديارهم وأموالهم ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي الذي عم الخلائق بجوده لما له من الإحاطة بالجلال والإكرام، فهم وإن انتفى عنهم الوصفان الأولان فإن هذه الصفات مؤذنة بأنهم ممن زكى الله، =

= وتعدادها بجعلها علّة للعفو دليل على أن الزاكي من غير المعصومين قد يزل، فتدركه الزكاة بالتوبة فيرجع كما كان، وقد تكون الثلاثة لموصوف واحد، لأن سبب نزولها مسطح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فالعطف إذن للتمكن في كل وصف منها.

ولما كان النهي عن ذلك غير صريح في العفو، وكان التقدير: فليؤتوهم، عطف عليه مصرحاً بالمقصود قوله: ﴿وَلْيَعْفُوا۟﴾ أي عن زللهم بأن يمحوه ويغطوه بما يسلبونه عليه من أستار الحلم حتى لا يبقى له أثر. ولما كان المحو لا ينفي التذكر قال: ﴿وَلْيَصْفَحُوٓا۟﴾ أي يعرضوا عنه أصلاً ورأساً، فلا يخطروه لهم على بال ليثمر ذلك الإحسان، ومنه الصفوح، وهو الكريم.

ولما كانت لذة الخطاب تنسي كل عتاب، أقبل سبحانه بفضله ومنّه وطوله على أولي الفضل، مرغباً في أن يفعلوا بغيرهم ما يحبون أن يفعل بهم، مرهباً من أن يشدد عليهم إن شددوا فقال: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ﴾أي يا أولي الفضل ﴿أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ أي ما قصرتم في حقه. وناهيك بشهادة الله جل جلاله للصديق بأنه من أولي الفضل فيا له من شرف ما أجلاه، ومن سؤدد وفخار ما أعلاه، ولا سيّما وقد صدّقه رضي الله عنه بالعفو عمن شنّع على ثمرة فؤاده، ومهجة كبده، وهي أنه لا يقطع النفقة عنه أبداً، فيا لله من أخلاق ما أبهاها، وشمائل ما أطهرها وأزكاها، وأشرفها وأسناها.

ولما كان الجواب قطعاً كما أجاب الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: بلى والله إنا لنحب =

= أن يغفر الله لنا، وكان كأنه قيل: فاغفروا لمن أساء إليكم، فالله حكم عدل، يجازيهم على إساءتهم إليكم إن شاء، والله عليم شكور، يشكر لكم ما صنعتم إليهم، عطف عليه قوله: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ومن صفته ذلك، إن شاء يغفر لكم ذنوبكم بأن يمحوها فلا يدع لها أثراً، ويرحمكم بعد محوها بالفضل عليكم كما فعلتم معهم، فإن الجزاء من جنس العمل.

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴿٢٥﴾﴾ [النور: ٢٣- ٢٥] ولما كان الختم بهذين الوصفين بعد الأمر بالعفو ربما جرّأ على مثل هذه الإساءة، وصل به مرهّباً من الوقوع في مثل ذلك قوله معمماً للحكم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ﴾ أي بالفاحشة ﴿ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾ أي اللائي جعلن أنفسهن من العفة في مثل الحصن. ولما كان الهام بالسيئ والمقدم عليه عالماً بما يرمي به منه، جاعلاً له نصب عينيه، أكد معنى الإحصان بقوله: ﴿ٱلْغَٰفِلَٰتِ﴾ أي عن السوء حتى عن مجرد ذكره. ولما كان وصف الإيمان حاملاً على كل خير ومانعاً ن كل سوء، نبه على أن الحامل على الوصفين المتقدمين إنما هو التقوى، وصرف ما لهن من الفطنة إلى ما لله عليهن من الحقوق فقال: ﴿ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾. ولما ثبت بهذه الأوصاف البعد عن السوء، ذكر جزاء القاذف كفّاً وتحذيراً منه بصيغة المجهول، لأن المحذور اللعن لا كونه المعين، وتنبيهاً على وقوع =

= اللعن من كل من يأتي منه فقال: ﴿لُعِنُواْ﴾ أي أبعدوا عن رحمة الله، وفعل معهم فعل المبعد من الحد وغيره ﴿فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ﴾ ثم زاد في تعظيم القذف لمن هذه أوصافها فقال: ﴿وَلَهُمْ﴾ أي في الآخرة ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ وقيّد بوصف الإيمان، لأن قذف الكافرة وإن كان محرماً ليس فيه هذا المجموع، وهذا الحكم وإن كان عاماً فهو لأجل الصدّيقة بالذّات وبالقصد الأول، وفيما فيه من التشديد الذي قلّ أن يوجد مثله في القرآن، من الإعلام بعَلِيِّ قدرها، وجليِّ أمرِها، في عظيم فخرها، ما يجل عن الوصف.

ثم أتبع ذلك ذكر اليوم الذي يكون فيه أثر ذلك على وجه زاد الأمر عظماً فقال: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ﴾ أي يوم القيامة في ذلك المجمع العظيم ﴿أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم﴾ إن أنكرت ألسنتهم كذباً وفجوراً ظناً أن الكذب ينفعها ﴿بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ من هذا القذف وغيره؛ ثم زاد في التهويل بقوله: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي إذ تشهد عليهم هذه الجوارح ﴿يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ﴾ أي المحيط بكل شيء علماً وقدرة، وله الكمال كله ﴿دِينَهُمُ﴾ أي جزاءهم ﴿ٱلْحَقَّ﴾ أي الذي يظهر لكل أحد من أهل ذلك المجمع العظيم أنهم يستحقونه، فلا يقدر أحد على نوع طعن فيه ﴿وَيَعْلَمُونَ﴾ أي إذ ذاك، لانقطاع الأسباب، ورفع كل حجاب ﴿أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ﴾ أي وحده ﴿ٱلْحَقُّ﴾ أي الثابت أمره فلا أمر لأحد سواه ـ الذي لا يستحق العبادة سواه ـ =

= ﴿ٱلْمُبِينُ﴾ الذي لا أوضح من شأنه في ألوهيته وعلمه وقدرته وتفرده بجميع صفات الكمال، وتنزهه عن جميع سمات النقص، فيندمون عل ما فعلوا في الدنيا مما يقدح في المراقبة وتجري عليه الغفلة. قال ابن كثير: وأمهات المؤمنين أولى بالدخول في هذا من كل محصنة، لا سيّما التي كانت سبب النزول، وهي عائشة بنت الصديق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، وقد أجمع العلماء قاطبة على أن من سبّها بعد هذا ورماها بما رماها به بعد هذا الذي ذكر في هذه الآية؛ فإنه كافر لأنه معاند للقرآن، وفي بقيّة أمهات المؤمنين رضي الله عنهن قولان أصحهما أنهن كهي، والله أعلم. انتهى.

وقد علم من هذه الآيات وما سبقها من أول السورة وما لحقها إلى آخرها أن الله تعالى ما غلّظ في شيء من المعاصي ما غلّظ في قصة الإفك، ولا توعّد في شيء ما توعد فيها، وأكّد وبشّع، ووبّخ وقرّع، كل ذلك إظهاراً لشرف رسوله ﷺ، وغضباً له، وإعظاماً لحرمته، وصوناً لحجابه.

ثم قال سبحانه: ﴿ٱلْخَبِيثَـٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَـٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَـٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَـٰتِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [النور: ٢٦] فلما تضمن ما ذكر من وصفه تعالى علمه بالخفيات، أتبعه ما هو كالعلة لآية ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾ دليلاً شهودياً على براءة عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا فقال: ﴿ٱلْخَبِيثَـٰتُ﴾ أي من النساء، وقدم هذا الوصف لأن كلامهم فيه، فإذا انتفى ثبت الطيب ﴿لِلْخَبِيثِينَ﴾ أي من=

= الرجال. ولما كان ذلك لا يفهم أن الخبيث مقصور على الخبيثة قال: ﴿وَٱلْخَبِيثُونَ﴾ أي من الرجال أيضاً ﴿لِلْخَبِيثَٰتِ﴾ أي من النساء. ولما أنتج هذا براءتها رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا لأنها قرينة أطيب الخلق، أكّده بقوله: ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِۚ﴾ بذلك قضى العليم الخبير أن كل شكل ينضم إلى شكله، ويفعل أفعال مثله، وهو سبحانه قد اختار لهذا النبي الكريم لكونه أشرف خلقه خلّص عباده من الأزواج والأولاد والأصحاب ﴿**كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ**﴾ [آل عمران: ١١٠] «**خيركم قرني**» وكلما ازداد الإنسان منهم من قبله ﷺ قرباً ازداد طهارة، وكفى بهذا البرهان دليلاً على براءة الصديقة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، فكيف وقد أنزل الله العظيم في براءتها صريح كلامه، وحاطه من أوله وآخره بهاتين الآيتين المشيرتين إلى الدليل العادي، وقد خرّج مسلم في الأدب من صحيحه وأبو داود في سننه من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: «**الأرواح جنود مجندة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف**» وفي رواية عنه رفعها: «**الناس معادن كمعادن الذهب والفضة، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا، والأرواح جنود مجندة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف**» ولفظ حديث ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «**فإذا التقت تشامّ كما تشامّ الخيل، فما تعارف منها ائتلف..**».

وأنشدوا لأبي نُوَاس في المعنى: =

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى: بَاب قَوْلِهِ ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٤] وَقَالَ مُجَاهِدٌ: «تَلَقَّوْنَهُ» يَرْوِيهِ بَعْضُكُمْ عَنْ بَعْضٍ، «تُفِيضُونَ» تَقُولُونَ[1].

= إن القلــوب لأجنــاد مجنــدةٌ ... لله في الأرض بالأهواء تعــترفُ

فما تعارف منها فهو مؤتلف ... وما تناكر منها فهو مختلف

ولما ثبت هذا كانت نتيجته قطعاً: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي العالو الأوصاف بالطهارة والطيب ﴿مُبَرَّءُونَ﴾ ببراءة الله، وبراءة كل من له تأمل في مثل هذا الدليل ﴿مِمَّا يَقُولُونَ﴾ أي القَذَفَةِ الأخابث، لأنها لا تكون زوجة أطيب الطيبين إلا وهي كذلك. ولما أثبت لهم البراءة، استأنف الإخبار بجزائهم فقال: ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ فالله عز وجل قد كسا عائشة من الشرف ما كساها، وحلاها برونقه من مزايا الفضل ما حلاها، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وأرضاها. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، إبراهيم بن عمر البقاعي، مختصرًا (٥/ ٢٣٥ ـ ٢٤٨)

(١) قوله تعالى: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: أن يتحدث به ويلقيه بين الناس حتى ينتشر. والثاني: أن يتلقاه بالقبول إذا حُدِّثَ به ولا ينكره. وحكى ابن أبي مليكة أنه سمع عائشة تقرأ: إذ تلِقونه، بكسر اللام مخففة، وفي تأويل هذه القراءة وجهان: أحدهما: ترددونه، قاله اليزيدي. الثاني: تسرعون في الكذب وغيره. =

= قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى: قوله تعالى: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾ هذا بيان لسبب العذاب، وهو تلقي الباطل بالألسنة، والقول بالأفواه، وهما نوعان محرمان: القول بالباطل والقول بلا علم. ثم قال سبحانه: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾ فالأول تحضيض على الظن الحسن، وهذا نهي لهم عن التكلم بالقذف، ففي الأول قوله: ﴿ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ ويقول النبي ﷺ: «**إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث**» وكذا قوله تعالى: ﴿ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ دليل على حسن مثل هذا الظن الذي أمر الله به، وقد ثبت في الصحيح أن النبي ﷺ قال لعائشة: «**ما أظن فلانًا وفلانًا يدريان من أمرنا هذا شيئًا**» فهذا يقتضي جواز بعض الظن كما احتج البخاري بذلك؛ لكن مع العلم بما عليه المرء المسلم من الإيمان الوازع له عن فعل الفاحشة يجب أن يظن به الخير دون الشر. وفي الآية نهي عن تلقّي مثل هذا باللسان، ونهي عن أن يقول الإنسان ما ليس له به علم لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ والله تعالى جعل في فعل الفاحشة والقذف من العقوبة ما لم يجعله في شيء من المعاصي؛ لأنه جعل فيها الرجم، وقد رجم هو تعالى قوم لوط إذ كانوا هم أول من فعل فاحشة اللواط، وجعل العقوبة على القذف بها ثمانين جلدة، والرمي بغيرها فيه=

= الاجتهاد، ويجوز عند بعض العلماء أن يبلغ الثمانين عند كثير منهم كما قال عليّ: لا أُوتى بأحد يفضّلني على أبي بكر وعمر إلّا جلدته حدّ المفتري. وكما قال عبد الرحمن بن عوف: إذا شرب هَذَى، وإذا هذى افترى، وحدّ الشرب ثمانون، وحدّ المفتري ثمانون.

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ ﴾ الآية، وهذا ذم لمن يحبُّ ذلك، وذلك يكون بالقلب فقط، ويكون مع ذلك باللسان والجوارح، وهو ذم لمن يتكلم بالفاحشة أو يخبر بها محبّةً لوقوعها في المؤمنين: إما حسدًا، أو بغضًا، وإما محبة للفاحشة وإرادة لها، وكلاهما محبة للفاحشة وبغضًا للذين آمنوا فكل من أحب فعلها ذكرها. وكره العلماء الغزل من الشعر الذي يُرغّبُ فيها، وكذلك ذكرها غيبة محرمة، سواء كان بنظم أو نثر، وكذلك التشبه بمن يفعلها منهي عنه، مثل الأمر بها؛ فإن الفعل يطلب بالأمر تارة، وبالإخبار تارة، فهذان الأمران للفجرة الزناة اللوطية مثل ذكر قصص الأنبياء والصالحين للمؤمنين، أولئك يعتبرون من الغيرة بهم، وهؤلاء يعتبرون من الاغترار؛ فإن أهل الكفر والفسوق والعصيان يذكرون من قصص أشباههم ما يكون به لهم فيهم قدوة وأسوة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ ﴾ قيل: أراد الغناء، وقيل أراد قصص الملوك من الكفار من الفرس. وبالجملة كل ما رغب النفوس في طاعة الله ونهاها =

= عن معصيته من خبر أو أمر فهو من طاعته، وكل ما رغبها في معصيته ونهى عن طاعته فهو من معصيته، فأما ذكر الفاحشة وأهلها بما يجب أو يستحب في الشريعة، مثل النهي عنها وعنهم، والذم لها ولهم، وذكر ما يبغّضها وينفّر عنها، وذكر أهلها مطلقًا حيث يسوغ ذلك، وما يشرع لهم من الذم في وجوههم ومغيبهم؛ فهذا كله حسن، يجب تارة، ويستحب أخرى، وكذلك ما يدخل فيها من وصفها ووصف أهلها من العشق على الوجه المشروع الذي يوجب الانتهاء عما نهى الله عنه والبغض لما يبغضه. وهذا كما أن الله قص علينا في القرآن قصص الأنبياء والمؤمنين والمتقين وقصص الفجار والكفار لنعتبر بالأمرين: فنحب الأولين وسبيلهم ونقتدي بهم، ونبغض الآخرين وسبيلهم ونجتنب فعالهم.

وقد ذكر الله عن أنبيائه وعباده الصالحين من ذكر الفاحشة وعلائقها على وجه الذم ما فيه عبرة قال تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ إلى آخر القصة في مواضع من كتابه. فهذا لوط خاطب أهل الفاحشة وهو رسول الله بتقريعهم بها بقوله: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ وهذا استفهام إنكار، ونهي إنكار، ذمٌّ ونهي، كالرجل يقول للرجل: أتفعل كذا وكذا؟ أما تتقي الله؟

ثم قال: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ﴾ وهذا استفهام ثان فيه من الذم والتوبيخ ما فيه، وليس هذا من باب القذف واللمز. وكذلك قوله: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ إلى آخر القصة، فقد =

حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بن كَثِيرٍ، أَخْبَرَنَا سُلَيْمَانُ، عَنْ حُصَيْنٍ، عَنْ أَبِي وَائِلٍ، عَنْ مَسْرُوقٍ، عَنْ أُمِّ رُومَانَ أُمِّ عَائِشَةَ أَنَّهَا قَالَتْ: لَمَّا رُمِيَتْ عَائِشَةُ؛ خَرَّتْ مَغْشِيًّا عَلَيْهَا.

وقال: بَاب ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٦].

= واجههم بذمهم وتوبيخهم على فعل الفاحشة، ثم إن أهل الفاحشة توعدوهم وتهددوهم بإخراجهم من القرية، وهذا حال أهل الفجور إذا كان بينهم من ينهاهم طلبوا نفيه وإخراجه، وقد عاقب الله أهل الفاحشة اللوطية بما أرادوا أن يقصدوا به أهل التقوى؛ حيث أمر بنفي الزاني ونفي المخنّث، فمضت سنة رسول الله ﷺ بنفي هذا وهذا، وهو سبحانه أخرج المتقين من بينهم عند نزول العذاب. وكذلك ما ذكره تعالى في قصة يوسف ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ﴾ إلى قوله: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ وما ذكره بعد ذلك فمن كلام يوسف من قوله: ﴿مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ﴾ وهذا من باب الاعتبار الذي يوجب انتهار النفوس عن معصية الله، والتمسك بالتقوى، وكذلك ما بينه في آخر السورة بقوله: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾. مجموع الفتاوى(١٥/ ٣٣١-٣٣٧) باختصار.

حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بن الْمُثَنَّى، حَدَّثَنَا يَحْيَى، عَنْ عُمَرَ بن سَعِيدِ بن أَبِي حُسَيْنٍ قَالَ: حَدَّثَنِي ابْنُ أَبِي مُلَيْكَةَ قَالَ: اسْتَأْذَنَ ابْنُ عَبَّاسٍ قَبْلَ مَوْتِهَا عَلَى عَائِشَةَ وَهِيَ مَغْلُوبَةٌ قَالَتْ: أَخْشَى أَنْ يُثْنِيَ عَلَيَّ. فَقِيلَ: ابْنُ عَمِّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَمِنْ وُجُوهِ الْمُسْلِمِينَ. قَالَتْ: ائْذَنُوا لَهُ. فَقَالَ: كَيْفَ تَجِدِينَكِ؟ قَالَتْ: بِخَيْرٍ إِنْ اتَّقَيْتُ. قَالَ: فَأَنْتِ بِخَيْرٍ إِنْ شَاءَ اللَّهُ؛ زَوْجَةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَلَمْ يَنْكِحْ بِكْرًا غَيْرَكِ، وَنَزَلَ عُذْرُكِ مِنْ السَّمَاءِ.

وَدَخَلَ ابْنُ الزُّبَيْرِ خِلَافَهُ فَقَالَتْ: دَخَلَ ابْنُ عَبَّاسٍ فَأَثْنَى عَلَيَّ، وَوَدِدْتُ أَنِّي كُنْتُ نِسْيًا مَنْسِيًّا(١).

---

(١) وفي روايات أخرى: فقال لها عبد الله: يا أمتاه، إن ابن عباس من صالح بيتك، يسلّم عليك ويودعك، قالت: ائذن له إن شئت. فقال: كيف تجدينك؟ قالت بخير إن اتّقيت الله، فلما جلس قال: أبشري يا أم المؤمنين، تقدمين على فَرَطِ صِدْقٍ، وتقدمين على رسول الله ﷺ وعلى أبي بكر، وما بينك وبين أن تلقى محمدًا والأحبة إلا أن تخرج الروح من الجسد، فأنت بخير إن شاء الله تعالى، زوجة رسول الله ﷺ، ولم ينكح بكرًا غيرك، كنت أحب نساء رسول الله ﷺ، ولم يكن يحب إلا طيّبًا، ونزل عذرك من السماء. وأنزل الله براءتك من فوق سبع سماوات، جاء به الروح الأمين، فليس في الأرض مسجد إلا وهو يتلى فيه أناء الليل وأطراف النهار، وسقطت قلادتك ليلة الأبواء فنزل التّيمّم، فوالله إنك لمباركة، إنما سميت أم المؤمنين لتسعدي، وإنه لاسمك قبل أن تولدي. =

= عن الفتح باختصار الروايات وإدماجها. وفي هذه القصة دلالة على سعة علم ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، وعظيم منزلته بين الصحابة والتابعين، وتواضع عائشة وفضلها وتشديدها في أمر دينها، وأن الصحابة كانوا لا يدخلون على أمهات المؤمنين إلا بإذن، والتنبيه على رعاية جانب الأكابر من أهل العلم والدين، وأن لا يترك ما يستحقونه من ذلك لمعارض دون ذلك في المصلحة. فتح الباري: (٨/ ٤٨٥) ولْنقف مع أُمّنا الطاهرة قليلًا:
وهيَ عائشة بنت أبي بكر الصديق، أم المؤمنين، الصديقة المبرأة من كل عيب، حبيبة رسول الله ﷺ، الفقيهة الربانية، وكنيتها أم عبد الله، كناها النبي ﷺ بابن أختها عبد الله بن الزبير. حينما استأذنته في الكنية فقال: «**اكتني بابنك عبد الله بن الزبير**» يعني ابن أختها. روت عن النبي ﷺ فأكثرت، روى عنها خلق كثير من الصحابة والتابعين، منهم مسروق والأسود وابن المسيب وعروة والقاسم وأبو سلمة وعمر، وولدت سنة أربع من النبوة، وتزوجها النبي ﷺ بعد موت خديجة بثلاث سنين وهي بنت سبع أو ست. وفي صحيح مسلم من حديثها: «تزوجها وهي بنت ست، وبنى بها وهي بنت تسع، ومات عنها وهي بنت ثماني عشرة» وله أيضًا: «تزوجها وهي بنت سبع سنين» دخل بها في السنة الثانية من الهجرة في شوال ، ومناقبها جمة منها نزول القرآن ببراءتها.
وفي الصحيحين من حديث أنس وأبي موسى أن رسول الله ﷺ قال: «**فضل عائشة على النساء، كفضل الثريد على سائر الطعام**». =

= وفي الصحيحين من حديثها رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا قالت: قال رسول الله ﷺ: «**يا عائشة هذا جبريل يُقرئك السلام**» قالت: فقلت: عليه السلام ورحمة الله وبركاته، ترى ما لا أرى.

ولهما عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «**أُرِيتُكِ في المنام ثلاث ليال، جاءني بك الملك في سَرَقَةٍ من حرير، فيقول: هذه امرأتك، فأكشف عن وجهك فإذا أنت هي، فأقول إن يك من عند الله يُمْضِهِ**» وعند الترمذي وحسّنه بسنده عنها: أنّ جبريل جاء بصورتها في خرقة حرير خضراء إلى النبي ﷺ فقال: «**هذه زوجتك في الدنيا والآخرة**».

وأخرج البخاري من حديث هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة قالت: قلت يا رسول الله، لو نزلت وادياً فيه شجرةً قد أُكِلَ منها، ووجدت شجراً لم يؤكل منها، في أيها كنت ترتع بعيرك؟ قال: «**في التي لم يرتع منها**» تعني أن النبي ﷺ لم يتزوج بكراً غيرها.

وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «**قال لها إني لأعلم إذا كنت عني راضية، وإذا كنت عليّ غضْبَى**» فقلت: من أين تعرف ذلك؟ فقال: «**أمّا إذا كنت عني راضية فإنك تقولين: لا، ورب محمد، وإذا كنت غضبى، قلتِ: لا، ورب إبراهيم**» قالت: قلتُ: أجل والله يا رسول الله، ما أهجر إلا اسمك. وللترمذي وصحّحه من حديث عمرو بن العاص رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قلت: يا رسول الله، أي الناس أحب إليك؟ قال: «**عائشة**» قلت: من الرجال؟ قال: «**أبوها**» قلت: وتأمّل كيف نسبَ أباها إليها لعظيم محبته لها صلوات الله وسلامه عليه. =

= وفي الصحيحين عنها قالت: خرجنا مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره، حتى إذا كنا بالبيداء أو بذات الجيش، انقطع عقدي، فأقام رسول الله ﷺ على التماسه، وأقام الناس معه وليسوا على ماء، فأتى الناس أبا بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقالوا: ما ترى ما صنعت عائشة، أقامت برسول الله وبالناس وليسوا على ماء وليس معهم ماء! قالت: فعاتبني أبو بكر، فقال ما شاء الله أن يقول، وجعل يطعن بيده في خاصرتي، فلا يمنعني من التحرك إلا مكان النبي ﷺ على فخذي. فنام رسول الله ﷺ حتى أصبح على غير ماء، فأنزل الله آية التيمم، فتيمموا. فقال أسيد بن حضير وهو أحد النقباء: ما هذا بأول بركتكم يا آل أبي بكر، قالت: فبعثنا البعير الذي كنت عليه، فوجدنا العقد تحته. وفي المسند بزيادة: قالت: يقول أبي حين جاء من الله من الرخصة للمسلمين: والله ما علمت يا بنية إنك لمباركة، ماذا جعل الله للمسلمين في حبسك إياهم من البركة واليسر.

وعند أبو داود والنسائي بسند جيد عن النعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: استأذن أبو بكر على النبي ﷺ، فإذا عائشة ترفع صوتها عليه، فقال: يا بنت فلانة، ترفعين صوتك على رسول الله ﷺ! فحال النبي ﷺ بينه وبينها. ثم خرج أبو بكر، فجعل النبي ﷺ يترضاها، وقال: «**ألم تريني حلت بين الرجل وبينك**» ثم استأذن أبو بكر مرّة أخرى، فسمع تضاحكهما، فقال: أشركاني في سلمكما كما أشركتماني في حربكما. =

= وفي الصحيحين في ذكر خبر أم زرع، عن عروة عن عائشة...وفيه بعد أن ذكرت المرأة الحادية عشرة أوصاف زوجها...قالت عائشة: قال لي رسول الله ﷺ: **«كنت لك كأبي زرع لأم زرع»** أي في الألفة والوفاء.
وروى مسلمٌ رحمه الله عن عائشة رضي الله عنها أن نساء النبي ﷺ كُنَّ حزبين: فحزبٌ فيه عائشة وحفصة وصفيّة وسَوْدَةُ، والحزب الآخر: أم سلمة وسائر أزواج النبي ﷺ. وكان المسلمون قد علموا حب رسول الله ﷺ عائشة، فإذا كانت عند أحدهم هديةٌ يريد أن يهديها إلى رسول الله ﷺ أخّرها حتى إذا كان رسول الله ﷺ في بيت عائشة بعث صاحب الهدية بها إلى رسول الله ﷺ في بيت عائشة، فكلّم حزب أمُّ سلمة أمَّ سلمة فقلن: كلّمي رسول الله ﷺ يكلم الناس فيقول: من أراد أن يهدي إلى رسول الله ﷺ هديةً فليهد إليه حيث كان من نسائه. فكلّمته أم سلمة بما قلن، فلم يقل لها شيئاً. فسألنها فقالت: ما قال لي شيئاً. فقلن لها: كلّميه، فكلمته حين دار إليها أيضاً ولم يقل لها شيئاً، فسألنها فقالت: ما قال لي شيئاً، فقلن لها: كلميه حتى يكلّمك، فدار إليها فكلّمته فقال لها: لا تؤذيني في عائشة، فإن الوحي لم يأتني وأنا في ثوب امرأة إلا عائشة. قالت: فقلت: أتوب إلى الله من أذاك يا رسول الله.
ثم إنهن دعون فاطمة بنت رسول الله ﷺ، فأرسلنها إلى رسول الله تقول: إن نساءك يسألنك العدل في بنت أبي بكر، فاستأذنت عليه وهو مضطجع في مرطي، فأذن لها، فقالت: يا رسول الله، إن أزواجك أرسلنني يسألنك العدل في ابنة أبي قحافة، قالت عائشة: وأنا ساكتة، =

= فقال لها رسول الله ﷺ: «**أي بنية ألست تحبين ما أحب؟**» فقالت: بلى، قال: «**فأحبّي هذه**» قالت: فقامت فاطمة حين سمعت ذلك من رسول الله ﷺ، فرجعت إلى أزواج النبي ﷺ، فأخبرتهن بالذي قالت وبالذي قال رسول الله ﷺ، فقلن لها: ما نراك أغنيت عنا من شيء، فارجعي إلى رسول الله ﷺ فقولي له: إن أزواجك ينشدنك العدل في ابنة أبي قحافة. فقالت فاطمة: والله لا أكلمه فيها أبداً.

قالت عائشة فأرسل أزواج النبي ﷺ زينب بنت جحش زوج النبي ﷺ، وهي التي كانت تساميني منهن في المنزلة عند رسول الله ﷺ، ولم أر امرأةً قطّ خيراً في الدين من زينب، أتقى لله، وأصدق حديثاً، وأوصل للرحم، وأعظم صدقةً، وأشد ابتذالاً لنفسها في العمل الذي تصدق به وتقرب به إلى الله، ما عدا سَوْرَةٌ من حدّةٍ كان فيها تسرع منه الفيئة، قالت: فاستأذنت على رسول الله ﷺ ورسول الله ﷺ مع عائشة في مرطها على الحال التي دخلت فاطمة عليها وهو بها، فأذن لها رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله، إن أزواجك أرسلنني يسألنك العدل في ابنة أبي قحافة، قالت: ثم وَقَعَتْ بي، فاستطالت عليّ، وأنا أرقب رسول الله ﷺ، وأرقب طَرْفَهُ هل يأذن لي فيها؟ قالت: فلم تبرحْ زينبُ حتى عرفتُ أنّ رسول الله ﷺ لا يكرَهُ أن أنتصر، قالت: فلما وقعتُ بها لم أنشبها حتى أثخنتُ عليها، فقال رسول الله ﷺ وتبسّمْ: «**إنها ابنة أبي بكر**». =

= ولمسلم عنها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن النبي ﷺ كان إذا خرج، أقرع بين نسائه، فطارت القرعة لعائشة وحفصة، وكان إذا كان بالليل، سار مع عائشة يتحدث. فقالت حفصة: ألا تركبين الليلة بعيري، وأركب بعيرك تنظرين وأنظر. فقالت: بلى. فركبت. فجاء النبي ﷺ إلى جمل عائشة، وعليه حفصة، فسلم عليها، ثم سار حتى نزلوا، وافتقدته عائشة. فلما نزلوا، جعلت رجليها بين الإذخر وتقول: يا ربّ، سلط علي عقربًا أو حية تلدغني، رسولك، ولا أستطيع أن أقول له شيئًا. وفي هذا بيان منزلتها من قلب الرسول صلوات الله وسلامه عليه، وكيف كان يخصّها دون غيرها.

وروى أحمد وأصله في الصحيحين عن بن أبي مليكة، قال: قالت عائشة: توفي رسول الله ﷺ في بيتي، وفي يومي وليلتي، وبين سحري ونحري. ودخل عبدالرحمن بن أبي بكر، ومعه سواك رطب، فنظر إليه، حتى ظننت أنه يريده، فأخذته، فمضغته ونفضته وطيبته، ثم دفعته إليه، فاستن به كأحسن ما رأيته مستنًّا قط؛ ثم ذهب يرفعه إلي، فسقطت يده، فأخذت أدعو له بدعاء كان يدعو به له جبريل، وكان هو يدعو به إذا مرض، فلم يدع به في مرضه ذاك. فرفع بصره إلى السماء وقال: «**الرفيق الأعلى**» وفاضت نفسه. فالحمد لله الذي جمع بين ريقي وريقه في آخر يوم من الدنيا . والسحر: الرئة، والنحر: أعلى الصدر، ومعنى استن: استاك.

وأخرج الحاكم في مستدركه بسنده ووافقه الذهبي عن عائشة: أن رسول الله ﷺ ذكر فاطمة. قالت: فتكلمت أنا. فقال: «**أما ترضين أن تكوني** =

= **زوجتي في الدنيا والآخرة»** قلت: بلى والله، قال: **«فأنت زوجتي في الدنيا والآخرة»**.

وله كذلك ووافقه عن عبدالرحمن بن الضحاك: أن عبد الله بن صفوان أتى عائشة، فقالت: لي خلال تسع، لم تكن لأحد، إلا ما آتى الله مريم عليها السلام. والله ما أقول هذا فخرًا على صواحباتي. فقال ابن صفوان: وما هن؟ قالت: جاء الملك بصورتي إلى رسول الله، فتزوجني؛ وتزوجني بكرًا؛ وكان يأتيه الوحي، وأنا وهو في لحاف؛ وكنت من أحبّ الناس إليه؛ ونزل في آيات كادت الأمّة تهلك فيها؛ ورأيت جبريل ولم يره أحد من نسائه غيرى؛ وقُبض في بيتي، لم يله أحد غير الملك إلا أنا.

وأجمل بالمديحة الحسّانيّة حين قال شاعر الإسلام، وصدق:

رأيتُكِ ولْيَغْفِرْ لك الله حرَّةً ... من المحصنات غير ذات غوائلِ

حَصَانٌ رَزَانٌ ما تُزَنُّ بريبةٍ ... وتصبحُ غرثى من لحومِ الغوافلِ

وللترمذي وصحّحه عن أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: ما أشكل علينا أصحاب رسل الله ﷺ حديث قطّ، فسألنا عائشة إلا وجدنا عندها منه علمًا.

وله وحسّنه أن رجلا نال من عائشة عند عمّار فقال: اغرب مقبوحًا منبوحًا، أتؤذي حبيبة رسول الله ﷺ؟! والمنبوح هو الذي يضرب له مَثَلُ الكلب.

وله وصحّحه عن موسى بن طلحة قال: ما رأيت أحدًا أفصح من عائشة. وقال معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: والله ما سمعت خطيبًا ليس رسول الله =

= ﷺ أبلغُ من عائشة. وقال مسروق رأيت مشيخة أصحاب رسول الله ﷺ الأكابر يسألونها عن الفرائض. وكان مسروق إذا حدث عن عائشة قال: حدثتني الصديقة ابنة الصديق، البريئة المبرأة من فوق سابع سماء. وقال عطاء بن أبي رباح: كانت أفقه الناس، وأحسن الناس رأيًا في العامّة. وقال عروة: ما رأيت أحدًا أعلم بفقه ولا بطبّ ولا بشعر من عائشة، ما كان ينزل بها شيء إلا أنشدت فيه شعرًا. وقال الزهري: لو جُمِعَ علم عائشة إلى علم جميع أزواج النبي ﷺ وعلمِ جميع النساء، لكان علم عائشة أفضل. وعن هشام، عن أبيه، قال: لقد صحبت عائشة ــ وكانت خالته ــ، فما رأيت أحدًا قط كان أعلم بآية أنزلت، ولا بفريضة، ولا بسنة، ولا بشعر، ولا أروى له، ولا بيوم من أيام العرب، ولا بنسب، ولا بكذا، ولا بكذا، ولا بقضاء، ولا طب، منها. وعن عروة قال: ربما روت عائشة القصيدة ستين بيتًا وأكثر. وعن الأحنف، قال: سمعت خطبة أبي بكر وعمر وعثمان وعلي والخلفاء بعدهم، فما سمعت الكلام من فم مخلوق أفخم ولا أحسن منه من في عائشة. وقال موسى بن طلحة: ما رأيت أحدًا أفصح من عائشة. وعن الشعبي: أن عائشة قالت: رويت للبيد نحوًا من ألف بيت، وكان الشعبي يذكرها، فيتعجب من فقهها وعلمها، ثم يقول: ما ظنكم بأدب النبوة؟!

وعن هشام بن عروة، عن أبيه: أنها أنشدت بيت لبيد:

ذهب الذين يُعاشُ في أكنافهم وبقيتُ في خُلْفٍ كجلد الأجربِ=

= فقالت: رحم الله لبيدًا، فكيف لو رأى زماننا هذا؟! قال عروة: رحم الله أم المؤمنين، فكيف لو أدركت زماننا هذا؟! قال هشام: رحم الله أبي، فكيف لو رأى زماننا هذا؟! قلت: رحمهم الله، فكيف لو أدركوا زماننا هذا؟!

والأكناف: الجوانب والنواحي، والخُلْفُ: ما جاء من بعد، يقال: هو خلْف سوء من أبيه بتسكين اللام، وخلَف صدق من أبيه بتحريكها: إذا قام مقامه.

وعن الشعبي قال: قيل لعائشة: يا أم المؤمنين، هذا القرآن تلقيته عن رسول الله ﷺ، وكذلك الحلال والحرام؛ وهذا الشعر والنسب والأخبار سمعتها من أبيك وغيره؛ فما بال الطب؟ قالت: كانت الوفود تأتي رسول الله ﷺ، فلا يزال الرجل يشكو علّة، فيسأله عن دوائها، فيخبره بذلك، فحفظت ما كان يصفه لهم وفهمته.

وبلغ عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن عبد الله بن الزبير كان في دار لها باعتها بمئة ألف، ثم قسمت الثمن، فتسخط عبد الله بيع تلك الدار، فقال: أما والله لتنتهين عائشة عن بيع رباعها، أو لأحجرنّ عليها. قالت عائشة: أو قال ذلك؟ قالوا: قد كان ذلك. قالت: لله علي ألا أكلمه، حتى يفرّق بيني وبينه الموت. فطالت هجرتها إياه، فنقصه الله بذلك في أمره كله. فاستشفع بكل أحد يرى أنه يثقل عليها، فأبت أن تكلمه. فلما طال ذلك، كلّمَ المسور بن مخرمة، و عبدالرحمن بن الأسود بن عبد يغوث، أن يشملاه بأرديتهما ثم يستأذنا، فإذا أذنت لهما، قالا: كلنا؟ حتى يُدخلاه =

= على خالته عائشة، ففعلا ذلك. فقالت: نعم كلكم، فليدخل. ولا تشعر. فدخل معهما ابن الزبير، فكشف الستر، فاعتنقها، وبكى، وبكت عائشة بكاء كثيرًا، وناشدها ابن الزبير اللهَ والرحمَ، ونشدها مسور وعبد الرحمن بالله والرحم، وذكرا لها قول رسول الله ﷺ: «**لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث**» فلما أكثروا عليها، كلّمته، بعدما خشي ألا تكلمه. ثم بعثت إلى اليمن بمال، فابتيع لها أربعون رقبة، فأعتقتها.

وبعث إليها معاوية بمئة ألف فما أمست حتى فرّقتها. وقيل: إنه قضى عنها ثمانية عشر ألف دينار، ورآها عروة تصدّقت بسبعين ألفًا، وإنها لترقَعُ جانب درعها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا. وعند ابن سعد عن أم ذرة، قالت: بعث ابن الزبير إلى عائشة بمال في غرارتين، يكون مئة ألف، فدعت بطبق، فجعلت تقسم في الناس، فلما أمست، قالت: هاتي يا جارية فطوري. فقالت أم ذرة: يا أم المؤمنين، أما استطعت أن تشتري لنا لحما بدرهم؟ قالت: لا تعنفيني، لو أذكرتيني لفعلت. وعن عطاء: أن معاوية بعث إلى عائشة بقلادة بمئة ألف، فقسمتها بين أمهات المؤمنين. وفرض عمر لأمهات المؤمنين عشرة آلاف، عشرة آلاف، وزاد عائشة ألفين، وقال: إنها حبيبة رسول الله ﷺ.

وقال شعبة: أخبرنا عبدالرحمن بن القاسم، عن أبيه: أن عائشة كانت تصوم الدهر. ولفظ القاسم: أن عائشة كانت تسرد الصوم. قلت: أي تصوم الدهر، ولا تفطر إلا في الأيام المحرمة كالعيدين والتشريق وأيام الحيض. =

= وعن إبراهيم النخعي، قال: قالت عائشة: يا ليتني كنت ورقة من هذه الشجرة! وهذا من ورعها وعظيم خوفها من الله، وشدة تواضعها وإزرائها بنفسها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وأرضاها، وألحقنا بها في السابقين المقربين.
وعن ابن أبي مليكة: حدثني أبو عمرو ذكوان مولى عائشة، قال: قدم درج من العراق، فيه جوهر إلى عمر، فقال لأصحابه: تدرون ما ثمنه؟ قالوا: لا. ولم يدروا كيف يقسمونه، فقال: أتأذنون أن أرسل به إلى عائشة، لحب رسول الله ﷺ إياها؟ قالوا: نعم. فبعث به إليها. فقالت: ماذا فتح على ابن الخطاب بعد رسول الله؟ اللّهم، لا تبقني لعطيته لقابل.
وتوفيت أُمّنا سنة سبع وخمسين على المشهور، في ليلة سابع عشر شهر رمضان، وأمرت أن تدفن ليلًا فدفنت بعد الوتر بالبقيع، وصلى عليها أبو هريرة، ونزل في قبرها خمسة: عبد الله وعروة ابنا الزبير والقاسم بن محمد وعبد الله بن محمد بن أبي بكر وعبد الله بن عبد الرحمن بن أبي بكر، ودفنت به مع صواحبها رضي الله عنهن أجمعين. وفي المستدرك بإسناد صالح، عن أم سلمة: أنها لما سمعت الصرخة على عائشة، قالت: والله لقد كانت أحبّ الناس إلى رسول الله ﷺ، إلا أباها .
وللحاكم عن عن سالم سبلان: أنها ماتت في الليلة السابعة عشرة من شهر رمضان بعد الوتر. فأمرت أن تدفن من ليلتها، فاجتمع الأنصار، وحضروا، فلم ير ليلة أكثر ناسًا منها، نزل أهل العوالي، فدفنت بالبقيع.
قال الذهبي: مدّة عمرها: ثلاث وستون سنة وأشهر. =

وقـال: بَـاب ﴿وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [النور: ١٨] حَـدَّثَنِي مُحَمَّـدُ بـن بَـشَّارٍ، حَـدَّثَنَا ابْـنُ أَبِي عَـدِيٍّ، أَنْبَأَنَـا شُـعْبَةُ، عَـنْ الْأَعْمَشِ، عَنْ أَبِي الضُّحَى، عَنْ مَسْرُوقٍ قَالَ: دَخَلَ حَسَّانُ بن ثَابِتٍ عَلَى عَائِشَةَ، فَشَبَّبَ وَقَالَ:

حَصَانٌ رَزَانٌ مَـا تُـزَنُّ بِرِيبَـةٍ ... وَتُصْبِحُ غَرْثَى مِنْ لُحُومِ الْغَوَافِلِ(1)

= وانظـر: الـوافي بالوفيـات الـصفدي (١٦/ ٣٤٢) سـير أعـلام النـبلاء (٢/ ١٧٠) طرح التثريب، زين الدين عبد الرحيم العراقي (١/ ٣٣٧ - ٣٣٩).

(١) قَالَ حَسّانُ بن ثَابِتٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَعْتَذرُ فِي شَأْنِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا:

رأيتُـكِ ولْيَغْفِـرْ لـك الله حـرَّةً ... من المحْصَنَاتِ غير ذاتِ غَوائلِ

حَـصَانٌ رَزَانٌ مَـا تُـزَنّ بِرِيبَـةٍ ... وَتُصْبِحُ غَرْثَى مِنْ لُحُومِ الْغَوَافِلِ

عَقِيلَـةُ حَيّ مِـنْ لُـؤَيّ بـن غَالِـبٍ ... كِرَامِ الْمَسَاعِي مَجْدُهُمْ غَيْرُ زَائِلِ

مُهَذّبَـةٌ قَـدْ طَيّـبَ اللهُ خِيمَهَـا ... وَطَهّرَهَـا مِـنْ كُـلّ سُـوءٍ وَبَاطِـلِ

فَإِنْ كُنْت قَدْ قُلْت الّذِي قَدْ زَعَمْتُمْ ... فَـلَا رَفَعَـتْ سَـوْطِي إلَيّ أَنَـامِلِي

وَكَيْفَ وَوُدّي مَا حَيِيت وَنُصْرَتِي ... لِآلِ رَسُـولِ اللهِ زَيْـنُ الْمَحَافِـلِ

لَـهُ رَتَـبٌ عَـالٍ عَـلَى النّاسِ كُلّهِـمْ ... تَقَـاصَرُ عَنْـهُ سَـوْرَةُ الْمُتَطَـاوِلِ

فَـإِنّ الّـذِي قَـدْ قِيـلَ لَـيْسَ بِلَائِـطٍ ... وَلَكِنّـهُ قَـوْلُ امْـرِئٍ بِي مَاحِـلِ

قال السُّهيلي: حَصَانٌ رَزَانٌ: بِتَوَالِي الْفَتَحَاتِ، مُشَاكَلَةَ خِفّةِ اللّفْظِ لخفّة الْمعنـى، أي المـسَمّى بِهَـذه الـصّفَاتِ خفيـفٌ عَـلَى الـنّفس، وحَـصَانٌ من الْحِصْنِ والتّحَصّنِ وهو الِامْتِنَاعُ عَلَى الرّجَال من نَظَرِهِمْ إلَيها. وقيل: =

= الإحصان في كلام العرب هو مطلق المنع، فتكون المرأة محصنة بالإسلام، لأن الإسلام يكفها عن ما لا يحل، وتكون محصنة بالعفاف والحياء من أن تفعل ما تعاب به، وتكون محصنة بالحرية وبالتزويج أيضًا. والمرأة حصان بفتح الحاء بينة الحصن، أي مستعملة لما يوجبه عليها الإحصان من الامتناع عما لا يحل ولا يحسن، والحاصن أيضا المتعففة.

وقوله: ما تزن بريبة: أي لا تُتَّهم، يقال أزننت فلانًا بكذا أي أتهمته، فهو يُزَنٌّ بكذا.

وقوله: وتصبح غرثى من لحوم الغوافل: أي خميصة البطن من لحوم الناس، أي اغتيابهم، وضرب الغرث مثلًا، وهو عدم الطعم وخلو الجوف، وفي التنزيل: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾ [الحجرات: ١٢] ضرب المثل لأخذه في العرض بأكل اللحم، لأن اللحم ستر على العظم، والشاتم لأخيه كأنه يقشر ويكشف ما عليه من ستر. وقال ميتًا، لأن الميت لا يحس، وكذلك الغائب لا يسمع ما يقول فيه المغتاب.

وقوله من لحوم الغوافل: يريد العفائف الغافلة قلوبهن عن الشر، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [النور: ٢٣] جعلهن غافلات، ولا خطر الشر على قلوبهن، فهن في غفلة عنه، وهذا أبلغ ما يكون من الوصف بالعفاف.

وقوله: له رتب عال على الناس كلهم: فالرتب ما ارتفع من الأرض وعلا. والرتب أيضًا: قوّة في الشيء وغلظ فيه. والسورة: رتبة رفيعة من الشرف، مأخوذة اللفظ من سور البناء. =

= وقوله: فإن الذي قد قيل ليس بلائطٍ: أي بلاصق، يقال: ما يليط ذلك بفلان، أي ما يلصق به. ومنه سمي الربا: لياطًا، لأنه أُلصق بالبيع وليس ببيع.
وقوله: فلا رفعت سوطي إلي أناملي: دعاء على نفسه، وفيه تصديقٌ لمن قال إن حسان لم يُجلد في الإفك ولا خاض. الروض الأُنُف للسهيلي: (٤/ ٢٩ ـ ٣٧).

وفي المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم لأبي العباس أحمد الأنصاري القرطبي (٢٠/ ١٤٥): ويعني حسان بهذا البيت ـــ حصانٌ رزانٌ ـ: أن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا في غاية العفَّةِ والنزاهة عن أن تُزنَّ بريبة؛ أي تُتَّهم بها. ثم وصفها بكمال العقل والوقار والورع، المانع لها من أن تتكلم بعرض غافلة، وشبَّهها بالغرثى؛ لأنَّ بعض الغوافل قد كان هو آذاها فما تكلمت فيها، فكأنها كانت بحيث تنتصر ممن آذاها، بأن تقابلها بما يؤذيها، لكن حجزها عن ذلك دينها، وعقلها، وورعها. انتهى.
قلتُ: والمعنى الذي ذكره في دعائه على نفسه قد سبقه إليه النابغة الذبياني في اعتذاره للمنذر بقوله:
ما قلتُ من سيءٍ مما أتيتَ به ... إذاً فلا رفعتْ سوطي إليّ يدي
وقد أنكر بعض أهل العلم خوض حسان في الإفك، وقد تقدّم شيء من هذا، ونزيده بالقول:
قال ابن عبد البر: وقد أنكر قوم كون حسان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خاض في الإفك وأنه جلد، وجاء أن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا برأته من ذلك. وقد ذكر الزبير بن بكار =

= أنها قالت في حق حسان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: إني لأرجو أن يدخله الله الجنة بذبّه بلسانه عن رسول الله ﷺ، فقيل لها: أليس هو ممن لعنه الله في الدنيا والآخرة بما قال فيك؟ قالت: لم يقل شيئًا ولكنه القائل:

فإن كان ما قد قيل عني قلتُهُ ... فلا رفَعَتْ سوطي إلي أناملي

وعن الزهري قال: كنت عند الوليد بن عبد الملك ليلة من الليالي وهو يقرأ سورة النور مستلقيًا على سريره، فلما بلغ ﴿وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ﴾ جلس ثم قال: يا أبا بكر من تولّى كبره؟ أليس علي بن أبي طالب؟ قال الزهري: فقلت في نفسي: ماذا أقولُ؟ إن قلت: لا، لا آمنُ أن ألقى منه شرًّا! وإن قلتُ: نعم، جئتُ بأمر عظيم! ثم قلت لنفسي: لقد عوّدني الله على الصدق خيرًا، فقلت: لا. فضرب بقضيبة السرير قال: فمن؟ يكرر ذلك مرارًا. قلت: عبد الله بن أبيّ ابن سلول.

وفي البخاري: كانت عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا تنكر أن يُسبَّ عندها حسان وتقول: إنه الذي قال:

فإن أبي ووالدتي وعرضي ... لعرض محمد منكم وِقاءُ

تنظر: السيرة الحلبية، علي بن برهان الدين الحلبي: (٢/ ٦١٨ ـ ٦٢١)

شيء من خبر حسان وصفوان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا:

عن عامر الشعبي أن عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا قالت: ما سمعت بشيء أحسن من شعر حسان، وما تمثلت به إلا رجوت له الجنة، قوله لأبي سفيان:

هجوتَ محمدًا فأجبتُ عنه ... وعند الله في ذاكَ الجزاءُ=

= وأورد ابن عساكر وابن سعد والبيهقي في الدلائل والذهبي في تاريخ الإسلام وغيرهم خبر فتنة رأس النفاق عبد الله بن أبيّ بن سلول في عصابة من المنافقين حين رأوا أن الله قد نصر النبي ﷺ وأصحابه، فأظهروا قولًا سيئًا في منزلٍ نزله رسول الله ﷺ في سفر، وكان في أصحاب رسول الله ﷺ رجل يقال له جعال ورجل من بني غفار يقال له جهجاه، فعلت أصواتهما. وقيل: إن جهجاه خرج بفرس لرسول الله ﷺ وفرس له يومئذ يسقيهما، فأوردهما على الماء فوجد على الماء فتية من الأنصار، فتنازعوا على الماء فاقتتلوا، فقال عبد الله بن أبي يومئذ: هذا ما جزونا، آويناهم ومنعناهم ثم هؤلاء هم يقاتلونا، ولمز صفوان بشأن الإفك، وبلغ حسان بن ثابت الذي بين جهجاه الغفاري وبين الفتية الأنصاريين فغضب وقال:

أَمَسى الجَلاَبِيبُ قد عَزُّوا وقد كَثُرُوا وابنُ الفُرَيْعةِ أَمَسى بَيْضَةَ البَلَدِ

في أبيات أُخَر، والجلابيب: الغرباء، وقيل: السفلة. والفريعة: أم حسان. وقوله: أمسى بيضة البلد: أي منفردًا لا يدانيه أحد. وبيضة البلد: أي المقيم فلا يضعن، إما لعزّته وكثرته، وإما لذلّته وقلّته. فتُراد مدحًا وذمًّا، وهي في هذا الموضع مدح لنفسه، وقد يكون ذمًّا لتهييج قومه، وذلك إذا أريد أنه ذليل ليس معه غيره.

فقال صفوان: ما أراه إلا عناني، أي بالجلابيب.

فلما قدموا المدينة جاء صفوان إلى جعيل بن سراقة فقال انطلق بنا نضرب حسان فوالله ما أراد غيرك وغيري، لنحن أقرب إلى رسول الله=

= ﷺ منه فأبى جعيل أن يذهب قال لا أفعل إن لم يأمرني رسول الله ﷺ ولا تفعل أنت حتى تؤامر رسول الله ﷺ في ذلك فأبى صفوان عليه فخرج مصلتا السيف حتى ضرب حسان بن ثابت في نادي قومه قائلًا:

تَلَقَّ ذُبَابَ السَّيْفِ عنِّي فإِنّني غلامٌ إذا هُوجِيتُ لستُ بشاعرِ

قلت: يعني أن جزاءك ضربة سيفٍ ثائر، لا بيت شعر سائر. فوثبت الأنصارُ إليه فأوثقوه رباطًا، وكان الذي تولى ذلك منهم ثابت بن قيس بن شماس، فمرّ بهم عمارة بن حزم فقال: ما يصنعون؟ أَمِنْ أمرِ رسول الله ﷺ ورضاه، أم من أمر فعلتموه؟ قالوا: ما علم به رسول الله ﷺ؟ فقال: لقد اجترأت خل عنه. ثم جاؤوا سعد بن عبادة سيد الخزرج ــ الذين منهم حسان ــ وهو مقبلٌ على ناضحه بين القربتين، فذكروا له ما فعل حسان وما فعلوا فقال: أشاورتم في ذلك رسول الله؟ قالوا: لا. فقعد إلى الأرض وقال: وانقطاع ظهراه! أتأخذون بأيديكم ورسول الله بين ظهرانيكم؟! فخرج في قومه من الخزرج حتى أتاهم فقال: عمدتم إلى رجل من قوم رسول الله ﷺ ـ أي مهاجري ــ تؤذونه وتهجونه بالشعر وتشتمونه، وقد زعمتم أنكم نصرتموهم! فغضب سعد لرسول الله ﷺ. وفي رواية أن رسول الله أمرهم بحبسه حتى ينظر ما يؤول جرحُ حسان. فقالوا لسعد: فإن رسول الله ﷺ أمر بحبسه وقال: «**إن مات صاحبكم فاقتلوه**» قال سعد: والله إن أحب إلى رسول الله ﷺ للعفو، ولكن رسول الله ﷺ قد قضى لكم بالحق، وإن رسول الله ﷺ =

= ليحب أن يترك صفوان، والله لا أبرح حتى يطلق، فأطلقوه من الوثاق، فذهب به سعد إلى بيته فكساه حلّة، ثم خرج صفوان حتى دخل المسجد ليصلي فيه، فرآه رسول الله ﷺ فقال: «**صفوان؟**» قالوا: نعم، يا رسول الله. قال: «**من كساه؟**» قالوا: كساه سعد بن عبادة، قال: «**كساه من ثياب الجنة**».

فلما أصبحوا غدوا على النبي ﷺ فذكروا له ذلك فقال: «**أين ابن المعطل؟**» فقام إليه، فقال: هاأنذا يا رسول الله، فقال: ما دعاك إلى ما صنعت قال: آذاني وكثّر عليّ، ولم يرض حتى عرّض بي في الهجاء، فاحتملني الغضب، وهاأنذا، فما كان عليّ من حق فخذني به، فقال رسول الله ﷺ: «**ادعوا لي حسان**» فأُتي به فقال: «**يا حسان، أتشوَّهْتَ على قومي أن هداهم الله للإسلام؟!**» يقول: تنفّست عليهم يا حسان، «**أحْسِنْ فيما أصابك**» فقال: هي لك يا رسول الله، فقال: «**أحسنت**» فأعطاه رسول الله ﷺ سيرين أخت مارية القبطية، فولدت له عبد الرحمن، فكان بعدُ يفتخر أنه ابن خالة إبراهيم بن رسول الله ﷺ. وأعطاه أرضاً له، وأعطاه أيضًا سعد بن عبادة رضي الله عنه حائطًا كان يتحصّل منه مال كبير بما عفا عن حقّه.

وقيل: إنما أعطاه سيرين لذبّه عن رسول الله ﷺ بشعره، قال ابن عبد البر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إعطاء رسول الله ﷺ سيرين أخت مارية لحسان ابن ثابت يُروى من وجوه أكثرها أن ذلك ليس بسبب ضرب صفوان له، بل لذبّه بلسانه عن رسول الله ﷺ. =

قَالَتْ: لَسْتَ كَذَاكَ ــ وفي رواية: لكنَّكَ لَسْتَ كَذَلِكَ ــ قُلْتُ:

= هذا وقد استشهد صفوان بن المعطل السلمي شهيدًا في سنة تسع عشرة في أرمينيا حين كان على رأس سريّة، وقد حاصر حصنًا يقال له «بولا» فرموه فقتلوه، فدفن قدّام الحصن قريباً منه. قال أبو إسحاق السنجاري: أتينا بولا في بعثٍ فقال لي شيخ من أهلها قد بلغ مائة سنة أو زاد عليها: أتريد أن أريك قبر صفوان بن المعطل؟ قلت: نعم، فإذا هو من بابها على رمية بحجر، وقال: رميناه فقتلناه، فبلغ عمر قتله فدعا علينا دعوة إنا لنعرفها إلى الساعة. وقال عبد الملك بن القعقاع: حدثني مشايخ من الأرمن عن آبائهم: أن صفوان بن المعطل السلمي قاتل فَدُقَّتْ ساقُهُ فلم يزل يطاعن حتى مات.

وقال الذهبي بعد ذكر روايات مخالفة لقتله: فهذا تباين كثير في تاريخ موته فالظاهر أنهما اثنان، أي رجلان. والله أعلم.

لطيفة: قال صفوان بن المعطل رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: خرجنا حجاجاً فلما كان بالعرج ــ عقبة بين مكة والمدينة على جادة الحاج ــ إذا نحن بحية تضطرب، فلم تلبث أن ماتت، فأخرج لها رجل خرقة من عيبته فلفّها فيه ودفنها، وخدّ لها في الأرض. فلما أتينا مكة فإنا بالمسجد الحرام إذ وقف علينا شخص فقال: أيكم صاحب عمرو بن جابر؟ قلنا: ما نعرفه. قال: أيكم صاحب الجانّ؟ قلنا: هذا، قال: جزاك الله خيرًا، أما إنه كان من آخر السبعة موتًا الذين أتوا رسول الله ﷺ يستمعون القرآن.

تَـدَعِينَ مِثْـلَ هَـذَا يَـدْخُلُ عَلَيْـكِ وَقَـدْ أَنْـزَلَ اللَّهُ: ﴿وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ﴾ [النور: ١١] فَقَالَتْ: وَأَيُّ عَذَابٍ أَشَدُّ مِنْ الْعَمَى؟! وَقَالَتْ: وَقَدْ كَانَ يَرُدُّ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ(١).

---

(١) قوله: فقالت: أي عذاب أشد من العمى: كأنه قالت على تقدير فرض شمول الآية لحسان، وإلا فهي في ابن أبيّ، والله تعالى أعلم. حاشية السندي على صحيح البخاري: (٣/ ١٧).

وإلى شيء من أخبار شاعر الإسلام حسان بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فهو حسان بن ثابت بن المنذر من بني النجار الخزرجي الأنصاري الأزدي من كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان. ويكنى حسان بن ثابت أبا الوليد. وهو فحل من فحول الشعراء، بل هو أشعر أهل المدر، قال أبو عبيدة: أجمعت العرب على أن حسان أشعر أهل المدر.

وكان أحد المعمرين من المخضرمين، قيل إنه قد عمّر مئة وعشرين سنة، ستين في الجاهلية وستين في الإسلام! وشاهد ذلك ما رواه الزبير بن بكار بسنده عن حسان بن ثابت قال: إني لغلام يفعة ابن سبع سنين أو ثمان، إذا بيهودي بيثرب يصرخ ذات غداة: يا معشر يهود، فلما اجتمعوا إليه قالوا: ويلك، مالك؟ قال: طلع نجم أحمد الذي يولد به في هذه الليلة. قال: ثم أدركه اليهودي ولم يؤمن به!

قال أبو الفرج الأصبهاني: فهذا يدل على مدة عمره في الجاهلية، لأنه ذكر أنه أدرك ليلة ولادة النبي ﷺ وله يومئذ ثمان سنين، والنبي ﷺ بعث =

= وله أربعون سنة، وأقام بمكة ثلاث عشرة سنة، فقدم المدينة ولحسان يومئذ على ما ذكره ستون سنة أو إحدى وستون سنة، وحينئذ أسلم.
وعن أبي الزناد قال: عمِّر حسان بن ثابت عشرين ومئة سنة، ستين في الجاهلية وستين في الإسلام.
وعن سليمان بن يسار قال: رأيت حسان بن ثابت وله ناصية قد سدلها بين عينيه. وكان حسان يخضب شاربه وعنفقته بالحناء ولا يخضب سائر لحيته! فقال له ابنه عبد الرحمن: يا أبت لم تفعل هذا؟ قال: لأكون كأني أسد والغٌ في دم! قلت: فلا عجب أن يشبه نفسه بالأسد الضارب بذنبه، رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.
وعن محمد بن سيرين رَحِمَهُٱللَّهُ قال: كان يهجو رسول الله ثلاثة رهط من قريش: عبد الله بن الزّبعرى، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، وعمرو بن العاصي، فقال قائل لعلي بن أبي طالب رضوان الله عليه: أهج عنا القوم الذين قد هجونا. فقال علي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: إن أذن لي رسول الله ﷺ فعلت. فقال رجل: يا رسول الله، ائذن لعلي كي يهجو عنّا هؤلاء القوم الذين قد هجونا. قال: «**ليس هناك أو ليس عنده ذلك**» ثم قال للأنصار: «**ما منع القوم الذين نصروا رسول الله بسلاحهم أن ينصروه بألسنتهم**» فقال حسان بن ثابت: أنا لها، وأخذ بطرف لسانه وقال: والله ما يسرني به مِقْوَلٌ بين بصرى وصنعاء.
فقال: «**اذهب إلى أبي بكر فليحدثك حديث القوم وأيامهم وأحسابهم ثم اهجهم وجبريل معك**». وفي رواية: فأخرج لسانه أسود، فوضعه على =

= طرف أرنبته وقال: يا رسول الله، لو شئت لفريت به المزاد. فقال: «**يا حسان وكيف وهو مني وأنا منه؟**» قال: والله لأسلنه منك كما يسل الشعر من العجين، قال: «**فأت أبا بكر فإنه أعلم بأنساب القوم منك**» فأتى أبا بكر فأعلمه ما قال رسول الله ﷺ فقال: كف عن فلانة، واذكر فلانة. فكان مما قال:

هَجَوْت محمداً فأجَبْتُ عنه ... وعندَ اللهِ في ذاك الجَزَاءُ
فإنّ أَبي ووالدَه وعِرْضي ... لِعرِض محمد منكم وِقَاءُ
أتهجوه و لستَ له بكُفْءٍ ... فشَرُّكُما لخيْرِكُما الفِدَاء

ولما أُنشدت قريش شعر حسان قالت: إن هذا الشتم ما غاب عن ابن أبي قحافة. قلت: إذ هو أعلم العرب بأنسابها، وقد أعطى حسان مادة خصبة لرمي القوم فأحسن الرمي. حتى أن بعض أهل مكة قالوا حينها: لقد قال أبو بكر الشعر بعدنا! وإنك لترى ذلك واضحًا في ثنايا تلك الأبيات المصمية القاتلة، فمنها ما قاله لأحد قرابة النبي ﷺ من بني هاشم الذي كان يهجو رسول الله ﷺ أشد الهجاء ـــ وقد أسلم بعدُ وحسن إسلامه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ فرماه حسان بنبالٍ سنّها أبو بكر:

وإنّ سَنَامَ المَجْدِ من آلِ هاشمٍ ... بنو بِنْتِ مَخْزومٍ ووالدُك العَبْدُ
ومَنْ ولدتْ أبناء زُهْرةَ منكُم ... كرامٌ ولم يَلْحَقْ عجائزَك المَجْدُ
وإنّ امْرَأً كانتْ سُمَيّةُ أُمَّهُ ... وسَمْراءُ مغلوبٌ إذا بَلَغ الجَهْدُ
وأنت هَجِينٌ نِيطَ في آل هاشمٍ ... كما نِيطَ خَلْفَ الرَّاكب القَدَحُ الفَرْدُ

=

= فقال العباس: ومالي وما لحسان، يعني في ذكره نتيلة فقال فيها:

وَلَسْتَ كَعَبَّاسٍ ولا كابن أُمِّهِ ولكن هَجِينٌ ليس يُورَى له زَنْدُ

وقال في رجل من قريش بعد بدر يهجوه بقصيدة منها:

تَرَكَ الأَحِبَّة أنْ يُقَاتِلَ دونَهم ونجَا برأس طِمرَّةٍ ولجَامِ

وقالت عائشة: رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ـ وهي متذوقة وحافظة للشعر كأبيها ـ سمعت رسول الله ﷺ يقول لحسان بن ثابت الشاعر: «**إن روح القدس لا يزال يؤيدك ما كافحت عن الله عز وجل وعن رسول الله**» وعن ابن بريدة قال: أعان جبريل عليه السلام حسان بن ثابت في مديح النبي ﷺ بسبعين بيتًا. ـ قلت: ومن ذلك الذبّ عنه.

وعن جويرية بن أسماء قال: بلغني أن رسول الله قال: «**أمرت عبد الله بن رواحة فقال وأحسن، وأمرت كعب بن مالك فقال وأحسن، وأمرت حسان بن ثابت فشفى واشتفى**» قلت: لأن حسان كان يبلغ الكبد بنفوذ شعره، ـــ فهو بمثابة صاروخ بالستي! ـــ إذ تحمله الرواة وتتناقله الركبان لعمقه وجزالته وبديع معانيه، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وعن عوف بن محمد قال: قال النبي ﷺ ليلة وهو في سفر: «**أين حسان بن ثابت؟**»فقال حسان: لبيك يا رسول الله وسعديك. قال: «**احْدُ**» ـــ أي أنشد بالحُداء ـــ فجعل ينشد، ويصغي إليه النبي ﷺ ويستمع، فما زال يستمع إليه وهو سائق راحلته حتى كان رأس الراحلة يمس الورك، حتى فرغ من نشيده، فقال النبي ﷺ: «**لهذا أشد عليهم من وقع النبل**». =

= بل قد كان ينشده في مسجد الرسول ﷺ، فعن سعيد بن المسيب رَحِمَهُ اللَّهُ: أن عمر مرّ بحسان بن ثابت وهو ينشد في مسجد رسول الله ﷺ، فانتهره عمر فقال حسان: قد أنشدت فيه من هو خير منك، فانطلق عمر. الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر: (١/ ١٠٢).

قلت: ومما يدل على تفرّده بهامة الشعر خبر مفاخرته برسول الله ﷺ مع ثابت بن قيس أمام وفد تميم فغلباهم، وقد بسطتها في (وقد يجمع الله الشتيتين).

ومن جميل شعره الإيماني:

شَهِدتُ بإذن الله أن محمداً ... رسولُ الذي فوق السّمواتِ من عَلُ
وأنَّ أخا الأحقاف إذ يَعْذُلونه ... يقومُ بدِين الله فيهم فيَعدِلُ
وأنَّ أبا يحيى ويحيى كِلاهما ... له عَمَلٌ في دينِه مُتَقَبَّلُ
وأنّ الذي عادَى اليهودَ ابَن مَرْيَم ... رسولٌ أتَى من عند ذي العرش مُرْسَلُ
وأنَّ الذي بالجِزْعِ من بطن نَخْلةٍ ... ومَنْ دونَها فِلٌّ من الخير مَعْزِلُ

فيروى أن النبي ﷺ قال حينها: «**أنا أشهد معك**».

ولتسمح لي نفس القارئ الكريم بنفح شيء من أرج الأدب العربي العزيز، فإنه ليعز عليّ عزوف كثير من طلبة العلم عن رياض الأدب، ورغبتهم عنها، بل وازورارهم عن مطالعتها، فضلًا عن روايتها! لما ظنوه من أنها قادحة في المروءة، مذهبة للوقار، ميبسة للرواء، غير حقيقةٍ =

= بالارتياض والتمتع والامتاع، أو أنها من خوارم الجلالة العلمية! بل أعنق بعضهم في زعمه بأنها بضاعة السفهاء! وقد بسطت القول في نقض ذلك بالأدلة والشواهد والبراهين والأمثلة في كتاب: (وقد يجمع الله الشتيتين) وقد عقد للقرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ فصلاً نفيسًا في تفسيره الجامع لأحكام القرآن عند قول الله تعالى ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾ بيّن فيه أنواع الشعر التي وقع عليها وعلى أهلها الذم، ولابن رشيق القيرواني مقدمة باذخة حافلة لكتابه الموسوم بالعمدة في محاسن الشعر وآدابه، استأذن القارئ الكريم بسوقها علّها تنفخ في نفس بعض المعنيين سلاسة الأدب الرفيع، وصَبَا العبق الشذي، وتصقل عارضتهم وأساليبهم بجودة اللفظ الجزيل، وسأختصرها وأقتصرها مُكرهًا لضيق المقام، ومن أراد الربيع المخصب فثمّ وابل هطّال. قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

العرب أفضل الأمم، وحكمتها أشرف الحكم؛ لفضل اللسان على اليد، والبعد عن امتهان الجسد. وكلام العرب نوعان: منظوم، ومنثور. ولكل منهما ثلاث طبقات: جيدة، ومتوسطة، ورديئة، فإذا اتفقت الطبقتان في القدر، وتساوتا في القيمة، ولم يكن لإحداهما فضل على الأخرى كان الحكم للشعر ظاهراً في التسمية؛ لأن كل منظوم أحسن من كل منثور من جنسه في معترف العادة، ألا ترى أن الدُّر وهو أخو اللفظ ونسيبه، وإليه يقاس، وبه يشبه إذا كان منثوراً لم يؤمن عليه، ولم ينتفع به في الباب الذي له كسب، ومن أجله انتخب؛ وإن كان أعلى قدراً وأغلى ثمناً، فإذا نظم =

= كان أصون له من الابتذال، وأظهر لحسنه مع كثرة الاستعمال، وكذلك اللفظ إذا كان منثوراً تبدد في الأسماع، وتدحرج عن الطباع، ولم تستقر منه إلا المفرطة في اللفظ وإن كانت أجمله، والواحدة من الألف، وعسى أن لا تكون أفضله، فإن كانت هي اليتيمة المعروفة، والفريدة الموصوفة؛ فكم في سقط الشعر من أمثالها ونظرائها لا يعبأ به، ولا ينظر إليه، فإذا أخذه سلك الوزن، وعقد القافية؛ تألفت أشتاته، وازدوجت فرائده وبناته، واتخذ اللابس جمالاً، والمدخر مالاً فصار قرطة الآذان، وقلائد الأعناق، وأماني النفوس، وأكاليل الرؤوس، يقلب بالألسن، ويخبأ في القلوب، مصوناً باللب، ممنوعاً من السرقة والغصب.

وقد اجتمع الناس على أن المنثور في كلامهم أكثر، وأقل جيداً محفوظاً، وأن الشعر أقل، وأكثر جيداً محفوظاً؛ لأن في أدناه من زينة الوزن والقافية ما يقارب به جيد المنثور.

وكان الكلام كله منثوراً فاحتاجت العرب إلى الغناء بمكارم أخلاقها، وطيب أعراقها، وذكر أيامها الصالحة، وأوطانها النازحة، وفرسانها الأمجاد، وسمحائها الأجواد؛ لتهز أنفسها إلى الكرم، وتدل أبناءها على حسن الشيم فتوهموا أعاريض جعلوها موازين الكلام، فلما تم لهم وزنه سموه شعراً؛ لأنهم شعروا به، أي: فطنوا.

وقيل: ما تكلمت به العرب من جيد المنثور أكثر مما تكلمت به من جيد الموزون؛ فلم يحفظ من المنثور عشره، ولا ضاع من الموزون عشره. =

= ولعل بعض الكتاب المنتصرين للنثر، الطاعنين على الشعر، يحتج بأن القرآن كلام الله تعالى منثور، وأن النبي ﷺ غير شاعر؛ لقول الله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾ فالذي عليه في ذلك أكثر مما له؛ لأن الله تعالى إنما بعث رسوله أمياً غير شاعر إلى قوم يعلمون منه حقيقة ذلك، حين استوت الفصاحة، واشتهرت البلاغة؛ آية للنبوة، وحجة على الخلق، وإعجازاً للمتعاطين، وجعله منثوراً ليكون أظهر برهاناً لفضله على الشعر الذي من عادة صاحبه أن يكون قادراً على ما يحبه من الكلام، وتحدى جميع الناس من شاعر وغيره بعمل مثله فأعجزهم ذلك، كما قال الله تعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ فكما أن القرآن أعجز الشعراء وليس بشعر، كذلك أعجز الخطباء وليس بخطبة، والمترسلين وليس بترسل، وإعجازه الشعراء أشد برهاناً، ألا ترى كيف نسبوا النبي ﷺ إلى الشعر لما غلبوا وتبين عجزهم؟ فقالوا: هو شاعر، لما في قلوبهم من هيبة الشعر وفخامته، وأنه يقع منه ما لا يلحق، والمنثور ليس كذلك، فمن هٰهنا قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾ أي: لتقوم عليكم الحجة، ويصح قبلكم الدليل، ويشهد لذلك رواية يونس عن الزهري أنه قال: معناه ما الذي علمناه شعراً، وما ينبغي له أن يبلغ عنا شعراً. =

= وقال غيره: أراد وما ينبغي له أن يبلغ عنا ما لم نعلمه، أي: ليس هو ممن يفعل ذلك؛ لأمانته ومشهور صدقه. ولو أن كون النبي ﷺ غير شاعر غض من الشعر لكانت أميته غضاً من الكتابة، وهذا أظهر من أن يخفي على أحد.

واحتج بعضهم بأن الشعراء أبداً يخدمون الكتاب، ولا تجد كاتباً يخدم شاعراً، وقد عميت عليهم الأنباء، وإنما ذلك لأن الشاعر واثق بنفسه. مدل بما عنده على الكاتب والملك؛ فهو يطلب ما في أيديهما ويأخذه، والكاتب بأي آية يفضل الشاعر فيرجو ما في يده؟ وإنما صناعته فضلة عن صناعته، على أن يكون كاتب بلاغة، فأما كاتب الخدمة في القانون وما شاكله فصانع مستأجر، مع أنه قد كان لأبي تمام والبحتري قهارمة وكتاب، وكان من عميان الشعراء كتاب أزمة كبشار وأبي علي البصير، وكان ابن الرومي من أكبر كتاب الدواوين، فغلب عليه الشعر؛ لأنه غلاب. وكما تجد من يمدح السوقة في الشعراء فكذلك تجد للسوقة كتاباً، وللتجار الباعة، في زمننا هذا وقبله.

ومن فضل الشعر أن الشاعر يخاطب الملك باسمه، وينسبه إلى أمه، ويخاطبه بالكاف كما يخاطب أقل السوقة؛ فلا ينكر ذلك عليه، بل يراه أوكد في المدح، وأعظم اشتهاراً للممدوح، كل ذلك حرص على الشعر، ورغبة فيه، ولبقائه على مر الدهور واختلاف العصور، والكاتب لا يفعل ذلك إلا أن يفعله منظوماً غير منثور، وهذه مزية ظاهرة وفضل بين. =

= ولما أوعد رسول الله ﷺ كعب بن زهير ضاقت به الأرض، فأتى إلى رسول الله ﷺ متنكراً، فلما صلى النبي ﷺ صلاة الفجر وضع كعب يده في يد رسول الله ﷺ ثم قال: يا رسول الله، إن كعب بن زهير قد أتى مستأمناً تائباً، أفتؤمنه فآتيك به؟ قال: هو آمن، فحسر كعب عن وجهه وقال: بأبي أنت وأمي يا رسول الله هذا مكان العائذ بك، أنا كعب بن زهير، فأمنه رسول الله رسول الله ﷺ، وأنشد كعب قصيدته التي أولها:

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول ... متيم إثرها لم يفد مكبول

يقول فيها بعد تغزله وذكر شدة خوفه ووجله:

أنبئت أن رسول الله أوعدني ... والعفو عند رسول الله مأمول

مهلاً هداك الذي أعطاك نافلة ال ... قرآن فيه مواعيظ وتفصيل

لا تأخذني بأقوال الوشاة فلم ... أذنب، ولو كثرت في الأقاويل

فلم ينكر عليه النبي ﷺ قوله، وما كان ليوعده على باطل، بل تجاوز عنه ووهب له بردته، فاشتراها منه معاوية بثلاثين ألف درهم.

وقالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: الشعر فيه كلامٌ حسن وقبيح، فخذ الحسن واترك القبيح، وقال على بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: الشعر ميزان القول، ورواه بعضهم: الشعر ميزان القوم.

ويروى عن أسماء بنت أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قالت: مر الزبير بن العوام رضي الله عنه بمجلس لأصحاب النبي ﷺ، وحسان ينشدهم، وهم =

= غير آذنين لما يسمعون من شعره، فقال: مالي أراكم غير آذنين لما تسمعون من شعر ابن الفريعة؟ لقد كان ينشد رسول الله ﷺ فيحسن استماعه، ويجزل عليه ثوابه، ولا يشتغل عنه إذا أنشده.

وكتب عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ إلى أبي موسى الأشعري: مر من قبلك بتعلم الشعر؛ فإنه يدل على معالي الأخلاق، وصواب الرأي، ومعرفة الأنساب.

وقال معاوية رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: يجب على الرجل تأديب ولده، والشعر أعلى مراتب الأدب. وقال: اجعلوا الشعر أكبر همّكم، وأكثر دأبكم، فلقد رأيتني ليلة الهرير بصفين وقد أتيت بفرس أغر محجل بعيد البطن من الأرض، وأنا أريد الهرب لشدة البلوى فما حملني على الإقامة إلا أبيات عمرو بن الإطنابة:

أبت لي همتي وأبى بلائي	وأخذي الحمد بالثمن الربيحِ
وإقحامي على المكروه نفسي	وضربي هامة البطل المشيحِ
وقولي كلما جشأت وجاشت	مكانك تحمدي أو تستريحي
لأدفع عن مآثر صالحات	وأحمي بعد عن عرض صحيحِ

ويروى أن أعرابياً وقف على علي بن أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ فقال: إن لي إليك حاجة رفعتها إلى الله قبل أن أرفعها إليك، فإن أنت قضيتها حمدت الله تعالى وشكرتك، وإن لم تقضها حمدت الله تعالى وعذرتك، فقال له علي: خط حاجتك في الأرض، فإني أرى الضر عليك، فكتب الأعرابي على الأرض إني فقير فقال له علي: يا قنبر؛ ادفع إليه حلتي الفلانية، فلما =

= أخذها مثل بين يديه فقال:

كسوتني حلة تبلى محاسنها   فسوف أكسوك من حسن الثنا حللا
إن الثناء ليحيي ذكر صاحبه   كالغيث يحيي نداه السهل والجبلا
لا تزهد الدهر في عرف بدأت به   فكل عبد سيجزى بالذي فعلا

فقال علي: يا قنبر، أعطه خمسين ديناراً، أما الحلة فلمسألتك، وأما الدنانير فلأدبك، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**أنزلوا الناس منازلهم**» وقيل لسعيد بن المسيب: إن قوماً بالعراق يكرهون الشعر، فقال: نسكوا نسكاً أعجمياً.

وقال ابن سيرين: الشعر كلام عقد بالقوافي، فما حسن في الكلام حسن في الشعر، وكذلك ما قبح منه. وسئل في المسجد عن رواية الشعر في شهر رمضان وقد قال قوم: إنها تنقض الوضوء فقال:

نبئت أن فتاة كنت أخطبها   عرقوبها مثل شهر الصوم في الطُّولِ

ثم قام فأم الناس، وقيل: بل أنشد:

لقد أصبحت عرس الفرزدق ناشزاً   ولو رضيت رمح أسته لاستقرتِ

وقال الزبير بن بكار: سمعت العمري يقول: رووا أولادكم الشعر؛ فإنه يحل عقدة اللسان، ويشجع قلب الجبان، ويطلق يد البخيل، ويحض على الخلق الجميل.

وكان ابن عباس يقول: إذا قرأتم شيئاً من كتاب الله فلم تعرفوه، فاطلبوه في أشعار العرب؛ فإن الشعر ديوان العرب. وكان إذا سئل عن=

= شيء من القرآن أنشد فيه شعراً. وكانت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا كثيرة الرواية للشعر. يقال: إنها كانت تروي جميع شعر لبيد. ولا تدع العرب الشعر حتى تدع الإبل الحنين.

وكان أبو السائب المخزومي على شرفه، وجلالته، وفضله في الدين والعلم يقول: أما والله لو كان الشعر محرماً لوردنا الرحبة كل يوم مراراً. والرحبة: الموضع الذي تقام فيه الحدود، يريد أنه لا يستطيع الصبر عنه فيحد في كل يوم مراراً ولا يتركه.

فأما احتجاج من لا يفهم وجه الكلام بقوله تعالى: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ فهو غلط، وسوء تأول؛ لأن المقصودين بهذا النص شعراء المشركين الذين تناولوا رسول الله ﷺ بالهجاء، ومسوه بالأذى، فأما من سواهم من المؤمنين فغير داخل في شيء من ذلك، ألا تسمع كيف استثناهم الله عز وجل ونبه عليهم فقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟﴾ يريد شعراء النبي ﷺ ينتصرون له، ويجيبون المشركين عنه، كحسان بن ثابت، وكعب بن مالك، وعبد الله بن رواحة. وقد قال فيهم النبي ﷺ: «**هؤلاء النفر أشد على قريش من نضح النبل**» ، وقال لحسان بن ثابت «**اهجهم يعني قريشاً فوالله لهجاؤك عليهم أشد من وقع السهام، في غلس الظلام، اهجهم ومعك جبريل روح القدس، وألق أبا بكر يعلمك تلك الهنات**» فلو أن الشعر حرام أو مكروه ما اتخذ النبي ﷺ شعراء يثيبهم على الشعر، ويأمرهم بعمله، ويسمعه منهم. =

= وأما قوله عليه الصلاة والسلام: «**لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحاً حتى يريه خير له من أن يمتلئ شعراً**» فإنما هو من غلب الشعر على قلبه، وملك نفسه حتى شغله عن دينه وإقامة فروضه، ومنعه من ذكر الله تعالى وتلاوة القرآن، والشعر كغيره مما جرى هذه المجرى من شطرنج وغيره سواء. وأما غير ذلك ممن يتخذ الشعر أدباً وفكاهة وإقامة مروءة فلا جناح عليه، وقد قال الشعر كثير من الخلفاء الراشدين، والجلة من الصحابة والتابعين، والفقهاء المشهورين، من ذلك قول أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

تـرى مـن لـؤي فرقـة لا يـصدها ... عن الكفر تذكير ولا بعث باعث
رسـول أتـاهم صـادق فتكـذبوا ... عليـه وقـالوا لـست فينـا بماكـث
فإن يرجعوا عن كفرهم وعقوقهم ... فـما طيبـات الحـل مثـل الخبائـث
وإن يركبـوا طغيـانهم وضـلالهم ... فلـيس عـذاب الله عـنهم بلابـث

ومن شعر عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وكان من أنقد أهل زمانه للشعر وأنفذهم فيه معرفة ويروى للأعور الشني:

هـون عليـك فـإن الأمـور ... بكـف الإله مقاديرهـا
فلـيس بآتيـك منهيهـا ... ولا قـاصر عنـك مأمورهـا

ومن شعره أيضاً، وقد روى لورقة بن نوفل في أبيات:

لا شيء مما تـرى تبقـى بـشاشته ... يبقـى الإله ويفنـى المـال والولـد
لم تغـن عـن هرمـز يومـاً خزائنـه ... والخلد قد حاولت عاد فما خلدوا

=

= ومن شعر عثمان بن عفان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ:

غنى النفس يغني النفس حتى يكفها ... وإن عضها حتى يضر بها الفقر
وما عسرة فاصبر لها إن لقيتها ... بكائنة إلا سيتبعها يسر

ومن شعر علي بن أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وكان مجوداً ما قاله يمدح همدان:

ولما رأيت الخيل ترجم بالقنا ... نواصيها حمر النحور دوامي
وأعرض نقع في السماء كأنه ... عجاجة دجن ملبس بقتام
ونادى ابن هند في الكلاع وحمير ... وكندة في لخم وحي جذام
تيممت همدان الذين هُمُ هُمُ ... إذا ناب دهر جنتي وسهامي
فجاوبني من خيل همدان عصبة ... فوارس من همدان غير لئام
فخاضوا لظاها واستطاروا شرارها ... وكانوا لدى الهيجا كشرب مدام
فلو كنت بواباً على باب جنة ... لقلت لهمدان: ادخلوا بسلام

فهؤلاء الخلفاء الأربعة رضوان الله عليهم، ما منهم إلا من قال الشعر، وخامسهم الحسن بن علي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وهو القائل وقد خرج على أصحابه مختضباً رواه المبرد:

نسوّد أعلاها وتأبى أصولها ... فليت الذي يسودُّ منها هو الأصلُ

ومن شعر معاوية بن أبي سفيان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا وهو لائق به، دالٌّ على صحّة ناقله:

إذا لم أجد بالحلم مني عليكم ... فمن ذا الذي بعدي يؤمل للحلم!؟
خذيها هنيئاً واذكري فعل ماجد ... حباك على حرب العداوة بالسلم

ومن شعر الحسين بن علي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، وقد عاتبه أخوه الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ في=

= امرأته:

لعمــــرك إنـنــــي لأحـــــب داراً تحـــل بهـــا ســـكينة والربـــاب

أحـــبهما وأبـــذل جـــلّ مـــالي ولـيس للائمـي عنـدي عتـاب

وقال حمزة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يذكر بدرًا:

عـشية صـاروا حاشـدين وكلنـا مراجله من غيظ أصحابه تغلي

فلـما تراءينـا أنـاخوا فعقلـوا مطايا وعقلنا مدى غرض النبل

وقلنـا لهـم حبـل الإله نـصيرنا ومـا لكـم إلا الـضلالة مـن حبـل

فثـار أبـو جهـل هنالـك باغيـاً فخـاب ورد الله كيـد أبي جهـل

وأما العباس فكان شاعراً مفلّقاً حسن التهدي، من ذلك قوله رَحِمَهُ اللَّهُ يوم حنين يفتخر بثباته مع رسول الله ﷺ:

ألا هل أتى عرسي مكرّي وموقفي بـوادي حنـين والأسـنة تـشرعُ

وقولي إذا ما النفس جاشت لها قدى وهـام تدهـدى والـسواعد تقطـع

وكيف رددت الخيل وهي مغيرة بـزوراء تعطـى باليـدين وتمنـع

نصرنا رسول الله في الحرب سبعة وقـد فـر مـن قـد فـر عنه فأقشعوا

ومن شعر عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا:

إذا طارقات الهم ضاجعت الفتى وأعمل فكر الليل والليل عـاكرُ

وبـاكرني في حاجـة لم يجـد بهـا سواي ولا من نكبة الدهر ناصر

فرجـت بـمالي همـه مـن مقامـه وزايلــه هــم طــروق مــسامر

وكــان لــه فــضل عــلي بظنــه بي الخـير إني للـذي ظـن شـاكر

ومن شعر جعفر بن أبي طالب ذي الجناحين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قوله يوم مؤتـة =

= وفيه قتل رحمة الله عليه:

يــا حبــذا الجنــة واقترابهـــا ... طيبـــة وبـــارد شرابهـــا
والــروم روم قــد دنــا عــذابها ... عـــلي إن لاقيتهـــا ضرابهـــا

ومن قول عبد الله بن الزبير رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا:

وكـم مـن عـدو قـد أراد مـساءتي ... بغيـــب ولـــو لاقيتـــه لتنـــدما
كثـير الخنـا حتـى إذا مـا لقيتـه ... أصر عـلى إثـم وإن كـان أقـسما

وقال عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُٱللَّهُ:

أيقظـان أنـت اليـوم أم أنـت حـالمُ ... وكيـف يطيـق النـوم حيران هـائمُ
فلـو كنـت يقظـان الغـداة لحرقـت ... جفونـا لعينيك الـدموع السواجم
نهـارك يـا مغـرور سـهو وغفلـة ... وليلـك نـوم والـردى لـك لازم
وتـشغل فـيما سـوف تكـره غبـه ... كـذلك في الـدنيا تعـيش البهـائم

وحسبك مـن القـضاة شريـح بـن الحـارث، فقـد كـان شـاعراً مجـوداً، وقـد استقـضاه عمـر بـن الخطـاب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، كتـب إلى مؤدب ولـده وقـد وجـده وقت الصلاة يلعب بجرو كلب، وأودع الأبيات رقعة وأنفذها مع ولده مختومة إلى المؤدب:

تـرك الـصلاة لأكلـب يـسعى بهـا ... طلب الهراش مع الغواة الرجّسِ
فليأتينـــك غـــدوة بـــصحيفة ... كتبــت لــه كــصحيفة المــتلمس
فـــإذا هممـــت بـــضربه فبـــدرة ... وإذا بلغــت بــه ثلاثــاً فــاحبس
واعلـم بأنـك مـا أتيـت فنفـسه ... مـع مـا يجرعنـي أعـز الأنفـس

وأما محمـد بن إدريس الشافعي فكان من أحسن النــاس شعرًا، وهــو =

= القائل:

ومتعب العيس مرتاحاً إلى بلد ... والموت يطلبه في ذلك البلدِ
وضاحك والمنايا فوق مفرقه ... لو كان يعلم غيباً مات من كمدِ
من كان لم يؤت علماً في بقاء غد ... ماذا تفكره في رزق بعد غد

وهذا باب لو تقصيته لاحتمل كتاباً مفرداً ولكني طبّقت المفصل، وذكرت بعض المشاهير من الناس.

وإنما قيل في الشعر: إنه يرفع من قدر الوضيع الجاهل، مثل ما يضع من قدر الشريف الكامل، وإنه أسنى مروءة الدني، وأدنى مروءة السرى؛ لأمرٌ ظاهر، ومن ذلك اشتهار عرابة الأوسي بشعر الشماخ بن ضرار، وقد بذل له في سنة شديدة وسق بعير تمراً، فقال:

رأيت عرابة الأوسي يسمو ... إلى الخيرات منقطع القرينِ
إذا ما راية رفعت لمجد ... تلقاها عرابة باليمين

حتى صار ذلك مثلاً سائراً، وأثراً باقياً، لا تبلى جدته، ولا تتغير بهجته، وقدح ذلك في مروءة الشماخ، وحط من قدره؛ لسقوط همته عن درجة مثله من أهل البيوتات وذوي الأقدار.

وإنما فضل امرؤ القيس وهو من هو لما صنع بطبعه، وعلا بسجيته، عن غير طمع ولا جزع. وحكي عن علي بن أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنه قال: لو أن الشعراء المتقدمين ضمنهم زمان واحد، ونصبت لهم راية فجروا معاً، علمنا من السابق منهم، وإذ لم يكن فالذي لم يقل لرغبة ولا لرهبة، فقيل: ومن هو؟ فقال: الكندي، قيل: ولم؟ قال: لأني رأيته أحسنهم نادرة، وأسبقهم بادرة. =

= وممن رفعه ما قاله من الشعر الحارث بن حِلّزة اليشكري، وكان أبرصًا، فأنشد الملك عمرو بن هند معلّقته: آذنتنا ببينِها أسماءُ. وبينه وبينه سبعة حجب؛ فما زال يرفعها حجاباً فحجاباً لحسن ما يسمع من شعره حتى لم يبق بينهما حجاب، ثم أدناه وقربه، وأمثاله كثير.

وممن رفعه ما قيل فيه من الشعر بعد الخمول المحلّق، وذلك أن الأعشى قدم مكة وتسامع الناس به، وكانت للمحلق امرأة عاقلة وقيل: بل أم فقالت له: إن الأعشى قدم، وهو رجل مفوه، مجدود في الشعر ما مدح أحداً إلا رفعه، ولا هجا أحداً إلا وضعه، وأنت رجل كما علمت فقيراً خامل الذكر ذو بنات، وعندنا لقحة نعيش بها فلو سبقت الناس إليه فدعوته إلى الضيافة ونحرت له واحتلت لك فيما تشتري به شراباً يتعاطاه؛ لرجوت لك حسن العاقبة، فسبق إليه المحلق، فأنزله ونحر له، ووجد المرأة قد خبزت خبزاً، وأخرجت نحياً فيه سمن، وجاءت بوطب لبن، فلما أكل الأعشى وأصحابه، وكان في عصابة قيسية، قدم إليه الشراب واشتوى له من كبد الناقة، وأطعمه من أطايبها، فلما جرى فيه الشراب وأخذت منه الكأس سأله عن حاله وعياله فعرف البؤس في كلامه، وذكر البنات، فقال الأعشى: كفيت أمرهن، وأصبح بعكاظ ينشد قصيدته:

أرقت وما هذا السهاد المؤرق وما بي من سقم وما بي معشقُ

ورأى المحلق اجتماع الناس، فوقف يستمع، وهو لا يدري أين يريد =

= الأعشى بقوله، إلى أن سمع:

نفى الذم عن آل المحلق جفنة ... كجابية الشيخ العراقي تفهقُ

ترى القوم فيها شارعين وبينهم ... مع القوم ولدان من النسل دردق

لعمري قد لاحت عيون كثيرة ... إلى ضوء نار باليفاع تحرّق

تشب لمقرورين يصطليانها ... وبات على النار الندى والمُحلّقُ

رضيعَيْ لَبَان ثدي أمٍّ تحالفا ... بأسحمَ داجٍ عوضُ لا نتفرَّقُ

ترى الجود يجري ظاهراً فوق وجهه ... كما زان متن الهندواني رونقُ

فما أتم القصيدة إلا والناس ينسلون إلى الملحق يهنئونه، والأشراف من كل قبيلة يتسابقون إليه جرياً يخطبون بناته؛ لمكان شعر الأعشى، فلم تمسِ منهن واحدة إلا في عصمة رجل أفضل من أبيها.

وكذلك بنو أنف الناقة، كانوا يفرقون من هذا الاسم، حتى إن الرجل منهم يسأل: ممن هو؟ فيقول: من بني قريع، فيتجاوز جعفراً أنف الناقة بن قريع، ويلغي ذكره فراراً من هذا اللقب، إلى أن دفعهم الحطيئة بعد ضيافة الزبرقان بن بدر وأحسن إليه فقال:

سيرِي أُمامُ فإنَّ الأكثرين حصًا ... والأكرمين إذا ما ينسبون أبًا

قوم هم الأنف والأذناب غيرهم ... ومن يساوي بأنف الناقة الذنبًا

فصاروا يتطاولون بهذا النسب ويمدون به أصواتهم في جهارة.

وعلى الضد من ذلك فالشعر يهتك ويضع، فمن ذلك أن بني العجلان، كانوا يفخرون بهذا الاسم لقصة كانت لصاحبه في تعجيل قرى الأضياف، إلى أن=

= هجاهم به النجاشي فضجروا منه، وسُبُّوا به، واستعدوا عليه عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، فقالوا: يا أمير المؤمنين هجانا، فقال: وما قال؟ فأنشدوه:

إذا الله عادى أهل لؤم ورقة فعادى بني عجلان رهط ابن مقبلِ

فقال عمر بن الخطاب: إنما دعا عليكم ولعله لا يجاب، فقالوا: إنه قال:

قبيلة لا يغدرون بذمة ولا يظلمون الناس حبة خردل

فقال عمر رضي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: ليتني من هؤلاء، أو قال: ليت آل الخطاب كذلك، أو كلاماً يشبه هذا، قالوا: فإنه قال:

ولا يردون الماء إلا عشية إذا صدر الوراد عن كل منهل

فقال عمر: ذلك أقل للسكاك، يعني الزحام، قالوا: فإنه قال:

تعاف الكلاب الضاريات لحومهم وتأكل من كعب بن عوف ونهشل

فقال عمر: كفى ضياعاً من تأكل الكلاب لحمه، قالوا: فإنه قال:

وما سمي العجلان إلا لقولهم خذ القعب واحلب أيها العبد واعجلِ

فقال عمر: كلنا عبد، وخير القوم خادمهم، فقالوا: يا أمير المؤمنين هجانا، فقال: ما أسمع ذلك، فقالوا: فاسأل حسان بن ثابت، فسأله فقال: ما هجاهم ولكن سلح عليهم! وكان عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أبصر الناس بما قال النجاشي، ولكن أراد أن يدرأ الحد بالشبهات، فلما قال حسان ما قال سجن النجاشي، وقيل: إنه حده ـ أي عزّره بالجلد ـ.

ومن أثر الشعر في النفوس ما ذكره العتبي: أن رجلاً من أهل المدينة =

= ادعى حقا على رجل، فدعاه إلى ابن حنطب قاضي المدينة، فقال: من يشهد بها تقول؟ فقال: زنقطة، فلما ولَّى قال القاضي: ما شهادته له إلا كشهادته عليه، فلما جاء زنقطة القاضي قال له: فداك أبي وأمي، أحسن والله الشاعر حيث يقول:

من الحنطبيين الذين وجوههم ... دنانير مما شيف في أرض قيصرا

فأقبل القاضي على الكاتب، فقال: كبير ورب السماء، ما أحسبه شهد إلا بالحق فأجز شهادته.

وكان لأمية بن حرثان ولد اسمه كلاب، هاجر إلى البصرة في خلافة عمر رضي الله عنه، فقال أمية:

سأستعدي على الفاروق رباً ... له عمد الحجيج إلى بساق

إن الفاروق لم يردد كلاباً ... على شيخين هامهما زواقي

فكتب عمر إلى أبي موسى الأشعري بإشخاص كلاب، فما شعر أمية إلا به يقرع الباب.

ولأبي الدلهان:

وللشعراء ألسنة حداد ... على العورات موفية دليله

ومن عقل الكريم إذا اتقاهم ... وداراهم مداراة جميله

إذا وضعوا مكاويهم عليه ... وإن كذبوا فليس لهن حيلة

وقال بعض الحذّاق: ليس للجودة في الشعر صفة، إنما هو شيء يقع في النفس عند المميز: كالفرند في السيف، والملاحة في الوجه. =

وقال: بَاب ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ١٩-٢٠] تَشِيعُ: تَظْهَرُ(١). وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ

---

(١) قال العلامة العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هؤلاء الذين يحبون أن تشيع، فكيف بمن أشاع الفاحشة والعياذ بالله؟! ولمحبة شيوع الفاحشة في الذين آمنوا معنيان:

المعنى الأول: محبة شيوع الفاحشة في المجتمع المسلم، ومن ذلك من يبثون الأفلام الخليعة، والصحف الخبيثة الداعرة، فإن هؤلاء لا شك أنهم يحبون أن تشيع الفاحشة في المجتمع المسلم، ويريدون أن يفتتن المسلم في دينه بسبب ما يشاع من هذه المجلات الخليعة الفاسدة والأفلام الخليعة الفاسدة أو ما أشبه ذلك، وكذلك تمكين هؤلاء مع القدرة على منعهم داخل، في محبة أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا، فالذي يقدر على منع هذه المجلات وهذه الأفلام الخليعة ويمكّن من شيوعها في المجتمع المسلم هو ممن يحب أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي عذاب مؤلم في الدنيا والآخرة.

المعنى الثاني: محبة أن تشيع الفاحشة في شخص معين، وليس في المجتمع الإسلامي كله، فهذا أيضًا له عذاب أليم في الدنيا والآخرة، فمن أحب=

= أن تشيع الفاحشة في زيد من الناس لسبب ما، هذا أيضا له عذاب أليم في الدنيا والآخرة، لاسيما فيمن نزلت الآية في سياق الدفع عنه وهي أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ، لأن هذه الآية في سياق آيات الإفك، والإفك هو الكذب الذي افتراه من يكرهون النبي صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم، ومن يحبون أن يتدنّس فراشه، ومن يحبون أن يعيّر بأهله، من المنافقين وأمثالهم، وقضية الإفك مشهورة. وقد أنزل الله تعالى في هذه القصة عشر آيات من القرآن ابتدأها بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُمۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْۚ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ والذي تولى كبره هو رأس المنافقين عبد الله بن أبيّ المنافق، فإنه هو الذي كان يشيع الخبر، لكنه خبيث لا يشيعه بلفظ صريح فيقول مثلا: إن فلانًا زنى بفلانة، لكنه يشيع ذلك بالتعريض والتلميح، لأن المنافقين جبناء يتسترون ولا يصرحون بما في نفوسهم فيقول عز وجل: ﴿وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ وفي هذا توبيخ من الله عز وجل للذين تكلموا في هذا الأمر يقول: هلّا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرًا، وذلك أن أم المؤمنين أمهم، فكيف يظنون بها ما لا يليق؟! وكان الواجب عليهم لما سمعوا هذا الخبر أن يظنوا بأنفسهم خيرا ويتبرؤا منه وممن قاله، ﴿لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ =

= ﴿هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ يعني هلا جاءوا عليه بأربعة شهداء يشهدون على هذا الأمر ﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ ولو صدقوا، ولهذا لو أن شخصا شاهد إنسانا يزني وجاء إلى القاضي وقال: أنا أشهد أن فلانًا يزني، قلنا: هات أربعة شهداء، فإذا لم يأت بأربعة شهداء جلدناه ثمانين جلدة، فإن جاء برجل ثان معه جلدناهما كل واحد ثمانين جلدة، وثالث أيضا نجلد كل واحد منهم ثمانين جلدة، ولهذا قال الله تعالى: ﴿لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾﴾ ولولا الفضل والرحمة من الله لأصابكم فيما أفضتم فيه العقاب المذكور، وفي قوله: ﴿مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ﴾ دليل على أن الحديث انتشر وفاض واستفاض واشتهر، لأنه أمر جلل عظيم خطير، والعادة جرت بأن الأمور الكبيرة تنتشر بسرعة، وتملأ البيوت، وتملأ الأفواه والآذان، ﴿لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾﴾.

﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾ من غير رويّة ومن غير بيّنة ومن غير يقين، ﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾ لأنه قذفٌ لأطهر امرأة على وجه الأرض، هي وصاحباتها زوجات رسول =

= الله ﷺ، فالأمر صعب وعظيم، وفي ذلك أيضا ـ أي من تلقّيهم الإفك ـ تعريضٌ برسول الله ﷺ لأن الله تعالى يقول: ﴿ٱلۡخَبِيثَٰتُ لِلۡخَبِيثِينَ وَٱلۡخَبِيثُونَ لِلۡخَبِيثَٰتِۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِۚ﴾ ولكنها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا طيّبة، وزوجها طيّب، فزوجها محمد رسول الله ﷺ وعلى آله وسلم، وهي الصديقة بنت الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وعن أبيها، ولهذا يقول تعالى: ﴿وَتَحۡسَبُونَهُۥ هَيِّنٗا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٞ﴾ ثم قال تعالى: ﴿وَلَوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ﴾ يعني هلا إذ سمعتموه ﴿قُلۡتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبۡحَٰنَكَ هَٰذَا بُهۡتَٰنٌ عَظِيمٞ﴾ وهذا هو الواجب عليك أن تنزه الله أن يقع مثل هذا من زوج النبي ﷺ ولهذا قال: ﴿سُبۡحَٰنَكَ هَٰذَا بُهۡتَٰنٌ عَظِيمٞ﴾ وتأمل كيف جاءت هذه الكلمة التي تتضمن تنزيه الله عز وجل إذ أنه لا يليق بحكمة الله ورحمته وفضله وإحسانه، أن يقع مثل هذا من زوج رسول الله ﷺ.

ثم قال تعالى: ﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثۡلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ يعني لا تعودوا لمثل هذا أبدا إن كنتم مؤمنين ثم قال تعالى: ﴿وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ والحمد لله على بيانه، ولهذا أجمع العلماء على أن من رمى أم المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بما جاء في حديث الإفك فإنه كافر مرتد، كالذي يسجد للصنم، فإن تاب وأكذب نفسه، وإلا قتل كافرًا لأنه كذب القرآن. وكل من رمى زوجة من زوجات الرسول ﷺ بما برأ الله منه عائشة فإنه يكون كافرًا مرتدًّا، يجب أن يُستتاب، فإن تاب وإلا قتل =

= بالسيف، وألقيت جيفته في حفرة من الأرض، بدون تغسيل ولا تكفين ولا صلاة، لأن الأمر خطير، ثم قال عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (١٩) وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (٢٠)﴾. وسبق أن أشرنا إلى أن الثلاثة من الصحابة الخلّص تورطوا في هذه القضية، وهم حسان بن ثابت رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، ومسطح بن أثاثة وهو ابن خالة أبي بكر، وحمنة بنت جحش أخت زينب بنت جحش، أما زينب بنت جحش زوج الرسول ﷺ وضرة عائشة فقد حماها الله، لكن أختها تورّطت، ولما أنزل الله براءتها أمر النبي ﷺ أن يحد هؤلاء الثلاثة حدّ القذف، فجلد كل واحد منهم ثمانين جلدة.

أما المنافقون فلم يحدّهم النبي ﷺ، واختلف العلماء في ذلك، فقيل: لأن المنافقين ما كانوا يجزمون، وإنما يقولون: يقال أو يذكر أو سمعنا أو ما أشبه ذلك، وقيل: لأن المنافق ليس أهلا للتطهير، فالحدُّ طهرة للمحدود، وهؤلاء المنافقون ليسوا بأهلٍ للتطهير، ولهذا لم يجلدهم الرسول عليه الصلاة والسلام، لأنه لو جلدهم لطهرهم من دنس هذا الشيء، لكنهم ليسوا أهلا للتطهير، فهم في الدرك الأسفل من النار، فتركهم وذنوبهم، فليس فيهم خير، وقيل غير ذلك، وعلى كل حال فإن هذه القصة قصة عظيمة فيها عبر كثيرة. شرح رياض الصالحين للعثيمين، مختصرًا: (١/ ٢٧٥ ـ ٢٨٥).

أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النور: ٢٢](١) وَقَالَ أَبُو أُسَامَةَ، عَنْ هِشَامِ بن عُرْوَةَ قَالَ: أَخْبَرَنِي أَبِي، عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: لَمَّا ذُكِرَ مِنْ شَأْنِي الَّذِي ذُكِرَ، وَمَا عَلِمْتُ بِهِ، قَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِيَّ خَطِيبًا، فَتَشَهَّدَ فَحَمِدَ اللَّهَ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ ثُمَّ قَالَ: «**أَمَّا بَعْدُ، أَشِيرُوا عَلَيَّ فِي أُنَاسٍ أَبَنُوا**(٢) **أَهْلِي، وَايْمُ اللَّهِ**(٣) **مَا عَلِمْتُ عَلَى أَهْلِي مِنْ سُوءٍ،**

---

(١) قال عبد الله بن المبارك: هذه أرجى آية في كتاب الله. قلت: وهي بلا شك من أرجى الآيات، والمشهور أنها آية الزمر: ﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

(٢) أبنوا أهلي: التأبين على وجهين: فتأبين الحي: ذكره بالقبيح، ومنه قوله: أبنوا أهلي، أي ذكروهم بسوء. والثاني: تأبين الميت، وهو مدحه بعد موته.

(٣) وايم الله: من ألفاظ القسم، وفيها لغات كثيرة. وتصح بالهمزة كذلك كسرًا وفتحًا، وصلًا وقطعًا.
قال ابن الأثير في النهاية في غريب الأثر: (١/ ٢٠٧): أيم الله: من ألفاظ القسَم، كقولك لَعمْر الله، وعَهْد الله، وفيها لغات كثيرة، وتفتح همزتها وتكسر، وهمزتها وصْل وقد تُقْطع، وأهل الكوفة من النحاة يزعمون أنها =

وَأَبَنُوهُمْ بِمَنْ وَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَطُّ، وَلَا يَدْخُلُ بَيْتِي قَطُّ إِلَّا وَأَنَا حَاضِرٌ، وَلَا غِبْتُ فِي سَفَرٍ إِلَّا غَابَ مَعِي» فَقَامَ سَعْدُ بن مُعَاذٍ: فَقَالَ ائْذَنْ لِي يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنْ نَضْرِبَ أَعْنَاقَهُمْ. وَقَامَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي الْخَزْرَجِ ـ وَكَانَتْ أُمُّ حَسَّانَ بن ثَابِتٍ مِنْ رَهْطِ ذَلِكَ الرَّجُلِ ـ فَقَالَ: كَذَبْتَ، أَمَا وَاللَّهِ أَنْ لَوْ كَانُوا مِنْ الْأَوْسِ مَا أَحْبَبْتَ أَنْ تُضْرَبَ أَعْنَاقُهُمْ! حَتَّى كَادَ أَنْ يَكُونَ بَيْنَ الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ شَرٌّ فِي الْمَسْجِدِ، وَمَا عَلِمْتُ.

فَلَمَّا كَانَ مَسَاءُ ذَلِكَ الْيَوْمِ؛ خَرَجْتُ لِبَعْضِ حَاجَتِي وَمَعِي أُمُّ مِسْطَحٍ، فَعَثَرَتْ وَقَالَتْ: تَعِسَ مِسْطَحٌ! فَقُلْتُ: أَيْ أُمِّ تَسُبِّينَ ابْنَكِ؟ وَسَكَتَتْ، ثُمَّ عَثَرَتْ الثَّانِيَةَ فَقَالَتْ: تَعَسَ مِسْطَحٌ! فَقُلْتُ لَهَا: أَيْ أُمِّ، أَتَسُبِّينَ ابْنَكِ؟ فَسَكَتَتْ، ثُمَّ عَثَرَتْ الثَّالِثَةَ فَقَالَتْ: تَعَسَ مِسْطَحٌ!

= جمع يَمين، وغيرهم يقول هي اسم موضوع للقسم.

وقال أبو البركات الأنباري في الإنصاف في مسائل الخلاف (١/ ٤٠٩): وفيها لغات كثيرة تنيف على عشر لغات: أيمن الله، وإيمن الله، وأيم الله، وإيم الله، وأم الله، وم الله، وليمن الله، ومن الله.

أما ابن أُمِّ قاسم المرادي في الجنى الداني في حروف المعاني (١/ ٩٢) فذكر عشرين لغة وأوردها. وانظر كذلك: القاموس للفيروز آبادي (١٦٠٢).

فَانْتَهَرْتُهَا، فَقَالَتْ: وَاللَّهِ مَا أَسُبُّهُ إِلَّا فِيكِ! فَقُلْتُ: فِي أَيِّ شَأْنِي؟ قَالَتْ: فَبَقَرَتْ(١) لِي الْحَدِيثَ. فَقُلْتُ: وَقَدْ كَانَ هَذَا؟ قَالَتْ: نَعَمْ وَاللَّهِ، فَرَجَعْتُ إِلَى بَيْتِي كَأَنَّ الَّذِي خَرَجْتُ لَهُ لَا أَجِدُ مِنْهُ قَلِيلًا وَلَا كَثِيرًا، وَوُعِكْتُ(٢). فَقُلْتُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: أَرْسِلْنِي إِلَى بَيْتِ أَبِي. فَأَرْسَلَ مَعِي الْغُلَامَ. فَدَخَلْتُ الدَّارَ فَوَجَدْتُ أُمَّ رُومَانَ فِي السُّفْلِ وَأَبَا بَكْرٍ فَوْقَ الْبَيْتِ يَقْرَأُ. فَقَالَتْ أُمِّي: مَا جَاءَ بِكِ يَا بُنَيَّةُ؟ فَأَخْبَرْتُهَا. وَذَكَرْتُ لَهَا الْحَدِيثَ، وَإِذَا هُوَ لَمْ يَبْلُغْ مِنْهَا مِثْلَ مَا بَلَغَ مِنِّي فَقَالَتْ: يَا بُنَيَّةُ، خَفِّفِي عَلَيْكِ الشَّأْنَ، فَإِنَّهُ وَاللَّهِ لَقَلَّمَا كَانَتْ امْرَأَةٌ حَسْنَاءُ عِنْدَ رَجُلٍ يُحِبُّهَا لَهَا ضَرَائِرُ إِلَّا حَسَدْنَهَا وَقِيلَ فِيهَا. وَإِذَا هُوَ لَمْ يَبْلُغْ مِنْهَا مَا بَلَغَ مِنِّي(٣). قُلْتُ: وَقَدْ عَلِمَ بِهِ أَبِي؟ قَالَتْ: نَعَمْ. قُلْتُ: وَرَسُولُ اللَّهِ

---

(١) فبقرت: البقر هو الفتح والتوسعة والشق، والمعنى: فَفَتَحَتْ لي الحديث وكشفته وأوضحته.

(٢) الوعك: اضطراب الحمى.

(٣) لم يبلغ منها ما بلغ مني: أي لم يؤثر فيها مثل ما أثر فيّ. وقولها: خففي عليك الشأن، وفي رواية: هوّني عليك، وفي رواية: خفضي.

لها ضرائر: جمع ضُرَّة، وقيل للزوجات ضرائر لأن كل واحدة يحصل لها الضرر من الأخرى بالغيرة.

واستعبرتُ: أي جرى دمعي. قال في القاموس: العَبرةُ: الدمعة، واستعبر جرت عبرته وحزن.

=

ﷺ؟ قَالَتْ: نَعَمْ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ. وَاسْتَعْبَرْتُ، وَبَكَيْتُ. فَسَمِعَ أَبُو بَكْرٍ صَوْتِي وَهُوَ فَوْقَ الْبَيْتِ يَقْرَأُ، فَنَزَلَ فَقَالَ لِأُمِّي: مَا شَأْنُهَا؟ قَالَتْ: بَلَغَهَا الَّذِي ذُكِرَ مِنْ شَأْنِهَا، فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ، قَالَ: أَقْسَمْتُ عَلَيْكِ أَيْ بُنَيَّةُ إِلَّا رَجَعْتِ إِلَى بَيْتِكِ، فَرَجَعْتُ.

وَلَقَدْ جَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْتِي، فَسَأَلَ عَنِّي خَادِمَتِي فَقَالَتْ: لَا وَاللَّهِ، مَا عَلِمْتُ عَلَيْهَا عَيْبًا، إِلَّا أَنَّهَا كَانَتْ تَرْقُدُ حَتَّى تَدْخُلَ الشَّاةُ فَتَأْكُلَ خَمِيرَهَا أَوْ عَجِينَهَا. وَانْتَهَرَهَا بَعْضُ أَصْحَابِهِ فَقَالَ: اصْدُقِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، حَتَّى أَسْقَطُوا لَهَا بِهِ[1]. فَقَالَتْ: سُبْحَانَ اللَّهِ، وَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ عَلَيْهَا إِلَّا مَا يَعْلَمُ الصَّائِغُ عَلَى تِبْرِ الذَّهَبِ الْأَحْمَرِ.

وَبَلَغَ الْأَمْرُ إِلَى ذَلِكَ الرَّجُلِ الَّذِي قِيلَ لَهُ فَقَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ، وَاللَّهِ مَا كَشَفْتُ كَنَفَ أُنْثَى قَطُّ! قَالَتْ عَائِشَةُ: فَقُتِلَ شَهِيدًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ[2].

= أقسمت عليك يا بنية إلا رجعت إلى بيتك: هذا مثل قولهم نشدتك بالله إلا فعلت أي ما أطلب منك. ينظر: تحفة الأحوذي: (٩/ ٢٤ ـ ٢٦).

(١) وأسقطوا لها به: أسقطوا به: أي: قالوا لها السقط من القول، وهو الرديء، يريد: أنهم سبوها، وقوله «به» أي بسبب هذا المعنى: وهو الذي سئلت عنه من أمر عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فيكون المعنى سبوها بهذا السبب. وقيل: أي سمّوا لها التهمة وصرحّوا لها بِقَالَةِ الناس.

(٢) فبلغ الأمر: أي أمر الإفك. ذلك الرجل: وهو صفوان. الذي قيل له: =

قَالَتْ: وَأَصْبَحَ أَبَوَايَ عِنْدِي، فَلَمْ يَزَالَا حَتَّى دَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَقَدْ صَلَّى الْعَصْرَ، ثُمَّ دَخَلَ، وَقَدْ اكْتَنَفَنِي أَبَوَايَ عَنْ يَمِينِي وَعَنْ شِمَالِي. فَحَمِدَ اللَّهَ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: «**أَمَّا بَعْدُ، يَا عَائِشَةُ، إِنْ كُنْتِ قَارَفْتِ**[1] **سُوءًا، أَوْ ظَلَمْتِ، فَتُوبِي إِلَى اللَّهِ، فَإِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ مِنْ عِبَادِهِ**» وفيه: ...فَوَعَظَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَالْتَفَتُّ إِلَى أَبِي، فَقُلْتُ لَهُ: أَجِبْهُ. قَالَ: فَمَاذَا أَقُولُ؟ فَالْتَفَتُّ إِلَى أُمِّي، فَقُلْتُ: أَجِيبِيهِ. فَقَالَتْ: أَقُولُ مَاذَا؟

فَلَمَّا لَمْ يُجِيبَاهُ؛ تَشَهَّدْتُ، فَحَمِدْتُ اللَّهَ، وَأَثْنَيْتُ عَلَيْهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ، ثُمَّ قُلْتُ: أَمَّا بَعْدُ، فَوَاللَّهِ لَئِنْ قُلْتُ لَكُمْ: إِنِّي لَمْ أَفْعَلْ، وَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يَشْهَدُ إِنِّي لَصَادِقَةٌ، مَا ذَاكَ بِنَافِعِي عِنْدَكُمْ. لَقَدْ تَكَلَّمْتُمْ بِهِ، وَأُشْرِبَتْهُ[2]

= أي عنه من الإفك ما قيل، فاللام هنا بمعنى عن، كما هي في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف: ١١]، أي عن الذين آمنوا، أو بمعنى في، أي قيل فيه، فهي كقوله: ﴿يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى﴾ أي في حياتي.

(١) قارفت: المقارفة هي الكسب والعمل في الأصل، ويقال لمن باشر معصية أو ألم بها. وروي بلفظ: ألمَمْتِ، والإلمام: المقاربة ، وهو من اللمم: صغار الذنوب، وقيل: اللمم مقاربة المعصية من غير إيقاع فعل.

(٢) وأشربته قلوبكم: أي: تداخل هذا الحديث قلوبكم ، كما يتداخل الصبغ الثوب فيشربه.

قُلُوبُكُمْ، وَإِنْ قُلْتُ: إِنِّي قَدْ فَعَلْتُ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَنِّي لَمْ أَفْعَلْ، لَتَقُولُنَّ: قَدْ بَاءَتْ بِهِ[1] عَلَى نَفْسِهَا. وَإِنِّي وَاللَّهِ مَا أَجِدُ لِي وَلَكُمْ مَثَلًا ــ وَالْتَمَسْتُ اسْمَ يَعْقُوبَ فَلَمْ أَقْدِرْ عَلَيْهِ ــ إِلَّا أَبَا يُوسُفَ حِينَ قَالَ: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨] وَأُنْزِلَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ سَاعَتِهِ، فَسَكَتْنَا[2]. فَرُفِعَ عَنْهُ، وَإِنِّي لَأَتَبَيَّنُ السُّرُورَ فِي وَجْهِهِ، وَهُوَ يَمْسَحُ جَبِينَهُ وَيَقُولُ: «**أَبْشِرِي يَا عَائِشَةُ، فَقَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ بَرَاءَتَكِ**» قَالَتْ: وَكُنْتُ أَشَدَّ مَا كُنْتُ غَضَبًا، فَقَالَ لِي أَبَوَايَ: قُومِي إِلَيْهِ. فَقُلْتُ: لَا وَاللَّهِ لَا أَقُومُ إِلَيْهِ، وَلَا أَحْمَدُهُ، وَلَا أَحْمَدُكُمَا، وَلَكِنْ أَحْمَدُ اللَّهَ الَّذِي أَنْزَلَ بَرَاءَتِي. لَقَدْ سَمِعْتُمُوهُ فَمَا أَنْكَرْتُمُوهُ، وَلَا غَيَّرْتُمُوهُ.

---

(١) باءت به: أي رجعت به وتحملته.

(٢) اكتنفني أبواي: قال في القاموس: اكتنفوا فلانًا أحاطوا به. والتمستُ: من الالتماس، أي طلبت. اسم يعقوب عليه السلام: حين قال: فصبر جميل، أي هو أجمل، وهو الذي لا شكوى فيه إلى الخلق. تحفة الأحوذي: (٩/ ٢٦) وقال شيخ الإسلام في الاستغاثة وهي المسمّاة: الرد على البكري: (١/ ٤٠٠):قال بعضهم: ذَكَرَ اللهُ الصبر الجميل، والصفح الجميل، والهجر الجميل. فالصبر الجميل: الذي ليس فيه شكوى إلى المخلوق، و الهجر الجميل: الذي ليس فيه أذى، والصفح الجميل: الذي ليس فيه عتاب.

وَكَانَتْ عَائِشَةُ تَقُولُ: أَمَّا زَيْنَبُ ابْنَةُ جَحْشٍ، فَعَصَمَهَا اللَّهُ بِدِينِهَا، فَلَمْ تَقُلْ إِلَّا خَيْرًا. وَأَمَّا أُخْتُهَا حَمْنَةُ فَهَلَكَتْ فِيمَنْ هَلَكَ. وَكَانَ الَّذِي يَتَكَلَّمُ فِيهِ مِسْطَحٌ، وَحَسَّانُ بن ثَابِتٍ، وَالْمُنَافِقُ عبد اللَّهِ بن أُبَيٍّ، وَهُوَ الَّذِي كَانَ يَسْتَوْشِيهِ وَيَجْمَعُهُ، وَهُوَ الَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ، هُوَ وَحَمْنَةُ. قَالَتْ: فَحَلَفَ أَبُو بَكْرٍ أَنْ لَا يَنْفَعَ مِسْطَحًا بِنَافِعَةٍ أَبَدًا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ يَعْنِي أَبَا بَكْرٍ ﴿أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ﴾ يَعْنِي مِسْطَحًا، إِلَى قَوْلِهِ ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢] حَتَّى قَالَ أَبُو بَكْرٍ: بَلَى، وَاللَّهِ يَا رَبَّنَا إِنَّا لَنُحِبُّ أَنْ تَغْفِرَ لَنَا. وَعَادَ لَهُ بِمَا كَانَ يَصْنَعُ(١).

---

(١) «ما تصفون»: أي على احتمال ما تصفونه. وإني لأتبين السرور: أي أعرفه. وهو يمسح جبينه: أي من العرق. تحفة الأحوذي: (٩/ ٢٧)

قلت: وكان الإمام ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ لا يتمالك نفسه من البكاء عند قراءة هذا الحديث عليه حتى تعلو مجلس درسه سكينة وخشوع ودعاء. وقد وقف ابن القيّم أثناء ذكره لغزوة المريسيع في الزاد عند هذه الحادثة فقال رحمة الله تعالى عليه:

وكانت غزوةِ المُرَيْسِيع في شعبانَ سنَةَ خَمسٍ، وسببُها: أنه لما بلغه ﷺ أن الحارث ابن أبى ضِرار سيِّدَ بني المُصْطَلِق سار في قومه ومن قَدَرَ عليه مِن العرب، يُريدونَ حربَ رسول الله ﷺ، فبعثَ بُرَيْدَةَ بن الحُصيب يَعْلَمُ =

= له ذلك فأتاهم، ولقي الحارث بن أبى ضِرار، وكلَّمه، ورجَعَ إلى رسولِ اللهِ ﷺ، فأخبره خبرَهم، فندب رسولُ اللهِ ﷺ الناسَ فأسرعوا في الخروج، وخرج معهم جماعةٌ مِن المنافقين، لم يخرُجوا في غَزاةٍ قبلَهَا، وخرج يومَ الإثنين لليلتين خَلتَا من شعبان، وبلغ الحارثَ بن أبى ضرار ومَنْ معه مسيرُ رسولِ الله ﷺ، وقَتْلُه عينَه الذي كان وجَّهه لِيأتِيَه بخبرِهِ وخبرِ المسلمين، فخافُوا خوفاً شديدًا، وتفرَّق عنهم مَنْ كان معهم مِن العرب، وانتهى رسولُ الله ﷺ إلى المُرَيْسِيعِ، وهو مكانُ الماءِ، فضرب عليه قُبَّتَه، ومعه عائشةُ وأمُّ سَلَمة، فتهيؤوا لِلقتال، وصفَّ رسولُ اللهِ ﷺ أصحابَه، ورايةُ المهاجِرِينَ مع أبى بكر الصِّدِّيق، ورايةُ الأنصارِ مع سعد بن عُبادة. ولم يكن بينهم قِتال، وإنما أغارَ عليهم على الماء، فَسَبى ذَرَارِيَهم، وأموالَهم. كما في «الصحيح»: أغارَ رسولُ الله ﷺ على بَنى المُصْطَلِقِ، وهُمْ غَارُّونَ. وذكر الحديث. وكان مِن جُملة السبي جُوَيْرِيَةُ بنتُ الحارث سَيِّدِ القوم، وقعت في سَهْم ثابتِ بن قيس، فكاتبَهَا، فأدَّى عنها رسُولُ الله ﷺ، وتزوَّجَها، فأعتقَ المسلمون بسبب هذا التزويج مئة ــ قلت: ومن الأخطاء الإملائية الشائعة بين الكتّاب كتابة مئة بالمد (مائة) وقد تواضع الأقدمون على ذلك لحاجة أصحاب الأسواق للتمييز في الكتابة بين كلمتَي: مئة وفئة، ولكن بعد الإعجام والتشكيل انتهت تلك الحاجة، فعاد الناس للأصل، وهو كتابتها على نبرة. ــ أهْلِ بيتٍ من بني المُصْطَلِق قد أسلموا، وقالُوا: أصهارُ رَسُولِ الله ﷺ. وقصة إسلام بني المصطلق رواها أحمد وغيره وذكرها ابن إسحاق في سيرته بسند حسن إذ صرّح فيه بالتحديث، فانتفى تدليسه. =

= ثم قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في سياق ذكر الخبر: ثم سار صفوان بها يَقُودُهَا حتَّى قَدِمَ بها، وقد نزل الجيشُ في نحرِ الظهيرة، فلما رأى ذلك الناسُ، تكلَّم كُلٌّ منهم بِشاكِلته، وما يَليقُ به، ووجد الخبيثُ عدوُّ اللهِ ابنُ أُبيّ مُتنفَّسًا، فتنفَّس مِن كَرْبِ النفاق والحسدِ الذي بين ضُلوعه، فجعل يَستحكي الإفكَ، ويَستوشِيه، ويُشِيعه، ويُذِيعه، ويَجمعُه، ويُفرِّقه، وكان أصحابُه يتقرَّبُونَ به إليه.

فلما قَدِمُوا المدينةَ، أفاضَ أهلُ الإفكِ في الحديثِ، ورسولُ اللهِ ﷺ ساكِتٌ لا يتكلَّم، ثم استشار أصحابَه في فراقها، فأشار عليه عليٌّ رضي الله عنه أن يُفارقَهَا، ويأخُذَ غيرها تلويحاً لا تصريحاً، وأشار عليه أُسامةُ وغيرُه بإمساكِها، وألا يلتفِتَ إلى كلام الأعداء، فعليٌّ لمّا رأى أنّ ما قِيل مشكوكٌ فيه، أشار بترك الشَّكِّ والرِّيبة إلى اليقين، ليتخلَّص رسولُ اللهِ ﷺ من الهمِّ والغمِّ الذي لحقه مِن كلام الناس، فأشار بحسم الداء، وأُسامة لما عَلِمَ حُبَّ رسولِ اللهِ ﷺ لها ولأبيها، وعَلِمَ مِن عِفّتها وبراءتها، وحَصانتها ودِيانتها ما هي فوقَ ذلك، وأعظمُ منه، وعرفَ مِن كرامةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ على ربِّه ومنزلته عنده، ودفاعِه عنه، أنه لا يجعلُ ربةَ بيته وحبيبته من النساء، وبنتَ صِدِّيقه بالمنزلة التي أنزلها بهِ أربابُ الإفك، وأن رسولَ الله ﷺ أكرمُ على ربه، وأعزُّ عليه من أن يجعل تحته امرأة بَغيّاً، وعلم أنَّ الصِّدِّيقةَ حبيبةَ رسول الله ﷺ أكرمُ على ربها مِن أن يَبْتَلِيهَا بالفَاحِشَةِ، وهيَ تحتَ رسوله. =

= ومَنْ قَوِيَتْ معرفته لله، ومعرفته لرسوله، وقدره عندَ اللهِ في قلبه، قال كما قال أبو أيوب وغيره مِن سادات الصحابة، لما سمعوا ذلك: ﴿سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٦]

وتأمّل ما في تسبيحهم للهِ، وتنزيههم له في هذا المقامِ مِن المعرفةِ به، وتنزيهه عما لا يليقُ به، أن يجعلَ لِرسوله وخليلِه وأكرمِ الخلق عليه امرأةً خبيثةً بغيًّا، فمن ظنَّ به سُبحانه هذا الظَّنَّ، فقد ظَنَّ به ظنَّ السَّوْءِ، وعرف أهلُ المعرفة باللهِ ورسوله أن المرأة الخبيثةَ لا تليقُ إلا بمثلها، كما قال تعالى: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ﴾ [النور: ٢٦] ، فقطعوا قطعاً لا يَشُكُّونَ فيهِ أن هذا بُهتان عظيم، وفِريةٌ ظاهرة.

فإن قيل: فما بالُ رسولِ الله ﷺ توقَّفَ في أمرها، وسألَ عنها، وبحَثَ، واستشارَ، وهو أعرفُ باللهِ، وبمنزلتِهِ عِندهُ، وبما يليقُ به، وهَلاَّ قال: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٦]، كما قاله فضلاءُ الصحابة؟

فالجوابُ: أن هذا مِن تمامِ الحِكَمِ البَاهِرةِ التي جعل اللهُ هذهِ القِصةَ سبباً لها، وامتحاناً وابتلاءً لرسولهِ ﷺ، ولجميع الأمة إلى يومِ القيامة، ليرفع بهذه القصة أقواماً، ويضعَ بها آخرينَ، ويزيدَ اللهُ الذين اهتَدَوْا هُدىً وإيماناً، ولا يزيدُ الظالمين إلا خَساراً. واقتضى تمامُ الامتحان والابتلاء أن حُبِسَ عن رسول الله ﷺ الوحيُ شهراً في شأنها، لا يُوحى إليه في ذلك شيء لتتمَّ حِكمتُهُ التي قدَّرها وقضَاهَا، وتظهرَ على أكمل الوجوه، =

= ويزدادَ المؤمنونَ الصادِقُونَ إيماناً وثباتاً على العدل والصدق، وحُسْنِ الظنِّ باللهِ ورسولِهِ، وأهلِ بيتِهِ، والصِّدِّيقينَ مِن عباده، ويزدادَ المنافقون إفكاً ونفاقاً، ويُظْهِرَ لِرسوله وللمؤمنين سرائرهم، ولتتمّ العبوديةُ المُرادة مِن الصِّدِّيقةِ وأبويها، وتتمَ نعمةُ اللهِ عليهم، ولِتشتد الفاقةُ والرغبةُ مِنها ومِن أبويها، والافتقارُ إلى اللهِ والذلُّ له، وحُسن الظن به، والرجاء له، ولينقطع رجاؤها من المخلوقين، وتيأسَ مِن حصول النُّصرةِ والفرج على يد أحد من الخلق، ولهذا وفّت هذا المقَام حقَّهُ، لمّا قال لها أبواها: قُومي إليه، وقد أنزلَ اللهُ عليه براءتَها، فقالت: واللهِ لا أَقُومُ إِلَيْهِ، ولا أَحْمَدُ إلاَّ اللهَ، هُو الذي أَنْزَلَ بَرَاءَتِي.

وأيضاً فكان مِن حكمةِ حَبْس الوحي شهراً، أن القضية مُحِّصَتْ وتمحَّضتْ، واستشرفَتْ قلوبُ المؤمنين أعظَم استشرافٍ إلى ما يُوحيه اللهُ إلى رسوله فيها، وتطلَّعت إلى ذلك غايةَ التطلُّع، فوافى الوحيُ أحوجَ ما كان إليه رسولُ الله ﷺ وأهلُ بيته، والصِّدِّيقُ وأهلُه، وأصحابُه والمؤمنون، فورد عليهم ورودَ الغيثِ على الأرضِ أحوجَ ما كانت إليه، فوقع منهم أعظمَ موقع وأَلطَفَه، وسُرُّوا به أتمَّ السُّرورِ، وحصل لهم به غايةُ الهناء، فلو أطلع اللهُ رسولَه على حقيقة الحالِ مِن أوَّلِ وَهلة، وأنزل الوحيَ على الفور بذلك، لفاتت هذه الحِكمُ وأضعافُها بل أضعافُ أضعافها.

وأيضاً فإن الله سُبحانه أحبَّ أن يُظْهِرَ منزلَةَ رسوله وأهلِ بيته عنده، وكرامتهم عليه، وأن يُخرِجَ رسولَه عن هذه القضية، ويتولَّى هو بنفسه =

= الدفاعَ والمنافحَة عنه ـ قلت: المنافحة هي المناضلة والمخاصمة والمدافعة والإجابة ـ والردَّ على أعدائه، وذمِّهم وعيبهم بأمر لا يكون له فيه عمل، ولا يُنسب إليه، بل يكونُ هو وحدَه المتوليَ لذلك، الثائرَ لرسوله وأهل بيته.

وأيضاً فإن رسولَ اللهِ ﷺ كان هو المقصودَ بالأذى، والتي رُمِيَتْ زوجتُه، فلم يكن يليقُ به أن يشهد ببراءتها مع علمه، أو ظنّه الظنَّ المقاربَ للعلم ببراءتها، ولم يظنَّ بها سُوءاً قطُّ، وحاشاه، وحاشاها، ولذلك لما استعذر مِن أهل الإفك، قال: «**مَنْ يَعْذِرُني**» ـ: أي من يقوم بعذري ويُشهِرُه إن جزيتُ الأفّاكَ على سوء صنيعه، فلا يلومني. ومن ذلك قولهم: قد أعذَر من أنذر، أي قام عذره في عدم ملامته إن عاقب ـ «**في رَجُلٍ بَلَغَني أذَاهُ في أَهْلي، واللهِ مَا عَلِمْتُ عَلى أَهْلي إلاَّ خَيْراً، ولَقَدْ ذَكَرُوا رَجُلاً ما عَلِمْتُ عَلَيْهِ إلاَّ خَيْراً، ومَا كَانَ يَدْخُلُ عَلَى أَهْلي إلاَّ مَعي**»، فكان عنده مِنَ القرائن التي تشهدُ ببراءة الصِّدِّيقة أكثر مما عند المؤمنين، ولكن لِكمال صبره وثباته، ورِفقه، وحُسنِ ظنه بربه، وثِقته به، وفّى مقامَ الصبر والثبات، وحسن الظن بالله حقَّه، حتى جاءه الوحيُ بما أقرَّ عينَه، وسرَّ قلبَه، وعظَّمَ قدرَه، وظهر لأُمته احتفالُ ربه به، واعتناؤه بشأنه.

ولما جاء الوحيُ ببراءتها، أمرَ رسولُ الله ﷺ بمن صرَّح بالإفك، فَحُدُّوا ثمانين ثمانين، ولم يُحد الخبيثُ عبد الله بن أُبَيّ، مع أنه رأسُ أهل الإفك، فقيل: لأن الحدودَ تخفيفٌ عن أهلها وكفَّارة، والخبيثُ ليس أهلاً لذلك، وقد وَعَدَهُ الله بالعذابِ العظيمِ في الآخرةِ، فيكفيهِ ذلك عن =

= الحد، وقيل: بل كان يستوشي الحديثَ ويجمعُه ويحكيه، ويُخرجه في قوالب مَن لا يُنسب إليه، وقيل: الحدُّ لا يثبتُ إلا بالإقرار، أو ببيِّنة، وهو لم يُقر بالقذف، ولا شهد به عليه أحد، فإنه إنما كان يذكُره بين أصحابه، ولم يشهدُوا عليه، ولم يكن يذكُره بين المؤمنين.

وقيل: حدُّ القذف حقُّ الآدمي، لا يُستوفى إلا بمطالبته، وإن قيل: إنه حقٌّ لله، فلا بُدَّ مِن مطالبة المقذوف، وعائشةُ لم تُطالب به ابنَ أُبَيَّ.

وقيل: بل تَرَك حدَّه لمصلحة هي أعظمُ مِن إقامته، كما ترك قتله مع ظهورِ نفاقه، وتكلمِه بما يُوجب قتله مراراً، وهي تأليفُ قومه، وعدمُ تنفيرهم عن الإسلام، فإنه كان مطاعاً فيهم، رئيساً عليهم، فلم تُؤمن إثارةُ الفتنة في حدِّه، ولعله تُرِكَ لهذِهِ الوجوهِ كُلِّهَا.

فجلد مِسْطَحَ بن أثاثة، وحسانَ بن ثابت، وحَمْنَةَ بنتَ جَحْشٍ، وهؤلاء مِن المؤمنين الصَّادقين تطهيراً لهم وتكفيراً، وترك عبد الله بن أُبَيِّ إذاً، فليس هو من أهل ذاك.

ومَن تأمَّل قولَ الصِّدِّيقةِ وقد نزلت براءتُها، فقال لها أبواها: قُومي إلى رسول اللهِ ﷺ، فقالت: «واللهِ لا أقومُ إلَيْهِ، ولا أَحْمَدُ إلا اللهَ»، علم معرفَتها، وقوةَ إيمانها، وتوليتها النعمة لربِّها، وإفرادَه بالحمد في ذلك المقَام، وتجريدَها التوحيد، وقوةَ جأشها، وإدلالَها ببراءة ساحتها، وأنها لم تفعل ما يُوجب قيامَها في مقام الراغب في الصُّلح، الطالب له، وثقتها بمحبة رسولِ اللهِ ﷺ لها قالت ما قالت، إدلالاً للحبيب على حبيبه، ولا سيما في مثل هذا المقام الذي هو أحسنُ مقامات الإدلال، فوضعتهُ =

= موضِعَه، ولله ما كان أحبَّها إليه حين قالت: «لا أحْمَدُ إلا الله، فإنه هو الذي أنزل براءتي» ولله ذلك الثباتُ والرزانةُ منها، وهو أحبُّ شيء إليها، ولا صبرَ لها عنه، وقد تنكَّر قلبُ حبيبها لها شهراً، ثم صادفَتِ الرِّضى منه والإقبال، فلم تُبادِرْ إلى القيام إليه، والسرور برضاه وقربه مع شدة محبتها له، وهذا غايةُ الثبات والقوة. زاد المعاد، ابن القيم (٢٥٨ ــ ٢٦٨) باختصار.

وذكر الواقدي في مغازيه وغيره أثناء روايته لهذه الغزاة مثالاً على بركة طاعة رسول الله ﷺ وشؤم مخالفته، فأورد بسنده عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال:

كنت رفيق عبد الله بن رواحة في غزوة المريسيع، فأقبلنا حتى انتهينا إلى وادي العقيق في وسط الليل، فإذا الناس معرسون ــ أي نازلون للمبيت ليلاً فالتعريس: نزول المسافر آخر الليل للاستراحة. أما الإدلاج فهو السير آخر الليل، وفي الحديث: **«من خاف أدلج»** ـ قلنا: فأين رسول الله ﷺ؟ قالوا: في مقدم الناس قد نام. فقال لي عبد الله بن رواحة: يا جابر هل لك بنا في التقدّم والدخول على أهلنا؟ فقلت: يا أبا محمد لا أحب أن أخالف الناس، لا أرى أحدًا تقدّم. قال ابن رواحة: والله ما نهانا رسول الله ﷺ عن تقدم. قال جابر: أما أنا فلست ببارح. فودّعني وانطلق إلى المدينة، فأنظر إليه على ظهر الطريق ليس معه أحد، فطرق أهله بلحارث بن الخزرج، فإذا مصباح في وسط بيته، وإذا مع امرأته إنسان طويل ـ أي نائمٌ قريب منها ـ فظنّ أنه رجل، وسقط في يديه، وندم =

= على تقدمه. وجعل يقول: الشيطانُ مع الغِرِّ! فاقتحم البيتَ رافعًا سيفه قد جرّده من غمده يريد أن يضربها. ثم فكّر وادّكر ــ وفي هذا فضيلة التأني والتثبت ـ ، فغمز امرأته برجله، فاستيقظت فصاحت وهي توسن ـ من الوسن وهو النعاس، أي قامت من نومها فجأة ـ فقال: أنا عبد الله، فمن هذا؟ قالت: رجيلة ماشطتي، سمعنا بمقدمكم فدعوتها تمشطني فباتت عندي.

فبات، فلمّا أصبح خرج معترضًا لرسول الله ﷺ، فلقيه ببئر أبي عتبة، ورسول الله ﷺ يسير بين أبي بكر وبشير بن سعد، فالتفت رسول الله ﷺ إلى بشير فقال: «**يا أبا النعمان**» فقال: لبيك . قال: «**إن وجه عبد الله ليخبرك أنه قد كره طروق أهله**» ـ وفيه عظيم فراسة رسول الله ﷺ ـ فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ قال رسول الله ﷺ: «**خبرك يا ابن رواحة؟**» فأخبره كيف كان تقدَّمَ، وما كان من ذلك. فقال رسول الله ﷺ: «**لا تطرقوا النساء ليلًا**» قال جابر: فكان ذلك أول ما نهى عنه رسول الله ﷺ.

قال جابر: فلم أر مثل العسكر ولزومه والجماعة، لقد أقبلنا من خيبر، وكنا مررنا على وادي القُرى فانتهينا إلى الجُرُفِ ـ موضع قرب المدينة ـ ليلًا، فنادى منادي رسول الله ﷺ: لا تطرقوا النساء ليلًا، قال جابر: فانطلق رجلان فعصيا رسول الله ﷺ، فرأيا جميعًا ما يكرهان! .

المغازي: (١/ ٤٤١ ـ ٤٤٢).

وكم في ثنايا تلك المحنة من منحٍ جسام وآلاء عظام، فقد رفعت للصديقين منارًا، وأورتْ زَنْدَ هِمَمِ الصَّالحين نارًا، وأعلنت في الخافقين للنبي ﷺ ولآله ولآل أبي بكر كرامةً ورفعةً وفخارًا(١).

(١) ملخص العبر من هذه الواقعة:

جامعُ الفوائدِ والعبرِ من هذا الخبرِ

فبعد العَبَرات عِبر، وقد ذكرنا بعضها في تضاعيف الهوامش ولله سبحانه وبحمده في طيّ محنه وابتلاءاته منحٌ ونعم وآلاء. وقد ذكر أهل العلم الغوّاصون في المعاني والممتحون للغرر والحكم فوائد أخلاقية وفرائد فقهية وقلائد مسلكية وخرائد حديثية، حريٌّ بالأمة الوقوف عليها وحقيقٌ بها تدارسها واعتوارها ونشرها. ومن تلك العبر، وقد رَبَتْ على المئة، وقد ذكر شطرها الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فأخذها عنه من بعده:

قال الحافظ في الفتح: وفي هذا الحديث من الفوائد: جواز الحديث عن جماعة ملفّقًا مجملًا. وفيه مشروعية القرعة حتى بين النساء، وفي المسافرة بهن، والسفر بالنساء حتى في الغزو. وجواز حكاية ما وقع للمرء من الفضل، ولو كان فيه مدح ناس وذم ناس، إذا تضمن ذلك إزلة توهّم النقص عن الحاكي إذا كان بريئًا، عند قصد نصح من يبلغه ذلك، لئلا يقع فيما وقع فيه مَنْ سَبَق، وإن الاعتناء بالسلامة من وقوع الغير في الإثم أولى من تركه يقع في الإثم، وتحصيل الأجر للموقوع فيه. وفيه استعمال التوطئة فيما يحتاج إليه من الكلام. وأن الهودج يقوم مقام البيت في =

= حجب المرأة. وجواز ركوب المرأة الهودج على ظهر البعير، ولو كان ذلك مما يشقّ عليه، حيث يكون مطيقًا لذلك. وفيه خدمة الأجانب للمرأة من وراء الحجاب. وجواز تستّر المرأة بالشيء المنفصل عن البدن. وتوجه المرأة لقضاء حاجتها وحدها وبغير إذن خاص من زوجها بل اعتماداً على الأذن العام المستند إلى العرف العام. وجواز تحلّي المرأة في السفر بالقلادة ونحوها. وصيانة المال ولو قلّ للنهي عن إضاعة المال، فإن عقد عائشة لم يكن من ذهب ولا جوهر. وفيه توقّف رحيل العسكر على إذن الأمير. واستعمال بعض الجيش ساقه يكون أمينًا ليحمل الضعيف ويحفظ ما يسقط وغير ذلك من المصالح. والاسترجاع عند المصيبة. وتغطية المرأة وجهها عن نظر الأجنبي. وفيه إغاثة الملهوف وعون المنقطع وإنقاذ الضائع وإكرام ذوي القدر وإيثارهم بالركوب وتجشم المشقة لأجل ذلك. وحسن الأدب مع الأجانب خصوصًا النساء، لا سيما في الخلوة، والمشي أمام المرأة ليستقر خاطرها، وتأمن مما يتوهم من نظره لما عساه ينكشف منها في حركة المشي. وفيه ملاطفة الزوجة وحسن معاشرتها والتقصير من ذلك عند إشاعة ما يقتضي النقص وإن لم يتحقق، وفائدة ذلك: أن تتفطن لتغيير الحال فتعتذر أو تعترف. وأنه لا ينبغي لأهل المريض أن يُعلموه بما يؤذي باطنه لئلّا يزيد ذلك في مرضه. وفيه السؤال عن المريض. وإشارة إلى مراتب الهجران بالكلام والملاطفة، فإذا كان السبب محققًّا فيترك أصلًا، وإن كان مظنونًا فيخفف، وإن كان مشكوكًا فيه أو محتملًا فيحسن التقليل منه، لا للعمل =

= بما قيل، بل لئلا يظن بصاحبه عدم المبالاة بما قيل في حقِّه، لأن ذلك من خوارم المروءة. وفيه أن المرأة إذا خرجت لحاجة تستصحب من يؤنسها أو يخدمها ممن يؤمن عليها. وفيه ذبُّ المسلم عن المسلم خصوصًا من كان من أهل الفضل، وردع من يؤذيهم ولو كان منهم بسبيل، وبيان فضيلة أهل بدر. وإطلاق السبّ على لفظ الدعاء بالسوء على الشخص. وفيه البحث عن الأمر القبيح إذا أُشيعَ وتعرُّفُ صحته وفساده بالتنقيب على من قيل فيه هل وقع منه قبل ذلك ما يشبهه أو يقرب منه، واستصحاب حال من أتهم بسوء إذا كان قبل ذلك معروفًا بالخير، إذا لم يظهر عنه بالبحث ما يخالف ذلك. وفيه فضيلة قويّة لأم مسطح لأنها لم تُحاب ولدها في وقوعه في حق عائشة، بل تعمدت سبّه على ذلك. وفيه تقوية لأحد الاحتمالين في قوله ﷺ عن أهل بدر: «**إن الله قال لهم اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم**» وأن الراجح أن المراد بذلك أن الذنوب تقع منهم لكنها مقرونة بالمغفرة تفضيلًا لهم على غيرهم بسبب ذلك المشهد العظيم، ومرجوحية القول الآخر أن المراد أن الله تعالى عصمهم فلا يقع منهم ذنب. وفيه مشروعية التسبيح عند سماع ما يعتقد السامع أنه كذب، وتوجيهه هنا أنه سبحانه وتعالى ينزَّهُ أن يحصل لقرابة رسول الله ﷺ تدنيسٌ فيشرع شكره بالتنزيه في مثل هذا، ـ قلت: لو قال أهله لكان أولى من مطلق القرابة، لأن عرض أهله متصل به ـ. وفيه خروج المرأة من بيتها على إذن زوجها ولو كانت إلى بيت أبويها. وفيه البحث عن الأمر المقول ممن يدل عليه المقول فيه، والتوقف في خبر الواحد ولو =

= كان صادقًا ـ قلت: أي فيما يسوء ـ وطلب الارتقاء من مرتبة الظن إلى مرتبة اليقين، وأن خبر الواحد إذا جاء شيئًا بعد شيء أفاد القطع، لقول عائشة: لأَستيقنَ الخبر من قبلهما، وأن ذلك لا يتوقف على عدد معين. ـ قلت: وقد ذكر العلامة الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه الرحلة إلى مكة زبدة تأمله العميق ونظره الثاقب لمسألة حديث الآحاد على وجه العموم فقال مُزيلًا لإشكال قديم: حديث الآحاد إذا صحّ سنده فهو قطعيّ من حيث العمل لدلالة الشريعة على ذلك، وظنّي من جهة صدق نفسه، والقول بقطعيته الخبرية مع تجويز الكذب على غير معصوم مكابرة. أهـ.

وفيه استشارة المرء أهل بطانته ممن يلوذ به بقرابة وغيرها، وتخصيص من جرّبت صحّة رأيه منهم بذلك ولو كان غيره أقرب، والبحث عن حال من اتهم بشيء وحكاية ذلك للكشف عن أمره، ولا يعد ذلك غيبة. وفيه استعمال: لا نعلمُ إلا خيرًا في التزكية، وأن ذلك كافٍ في حق من سبقت عدالته ممن يطّلع على خفيّ أمره. وفيه التثبّت في الشهادة، وفطنة الإمام عند الحادث المهم. والاستنصار بالأخصّاء على الأجانب. وتوطئة العذر لمن يراد إيقاع العقاب به أو العتاب له. واستشارة الأعلى لمن هو دونه. واستخدام من ليس في الرقّ. وأن من استفسر عن حال شخص فأراد بيان ما فيه من عيب فليقدّم ذكر عذره في ذلك إن كان يعلمه، كما قالت بريرة في عائشة حيث عاتبتها بالنوم عن العجين، فقدّمت قبل ذلك أنها جارية حديثه السن. وفيه أن النبي ﷺ كان لا يحكم لنفسه إلا بعد نزول الوحي، لأنه ﷺ لم يجزم في القصة بشيء قبل نزول الوحي. وأن الحمية =

= لله ورسوله لا تذمّ. وفيه فضائل جمّة لعائشة ولأبويها ولصفوان ولعلي بن أبي طالب وأسامة وسعد بن معاذ وأسيد بن حضير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ. وفيه أن التعصّب لأهل الباطل يُخرج عن اسم الصلاح. وجواز سب من يتعرض للباطل ونسبته إلى ما يسوءه وإن لم يكن ذلك في الحقيقة فيه، لكن إذا وقع منه ما يشبه ذلك جاز إطلاق ذلك عليه تغليظًا له. وإطلاق الكذب على الخطأ، والقسم بلفظ لعمر الله. وفيه الندب إلى قطع الخصومة وتسكين ثائرة الفتنة وسد ذريعة ذلك واحتمال أخف الضررين بزوال أغلظهما. وفضل احتمال الأذى. وفيه مباعدة من خالف الرسول ﷺ ولو كان قريبًا حميمًا. وفيه أن من آذى النبي ﷺ بقول أو فعل يقتل لأن سعد بن معاذ أطلق ذلك ولم ينكره النبي ﷺ. وفيه مساعدة من نزلت فيه بليّة بالتوجّع والبكاء والحزن. وفيه تثبت أبي بكر الصديق في الأمور، لأنه لم ينقل عنه في هذه القصة مع تمادي الحال فيها شهرًا كلمة فما فوقها، إلا ما ورد عنه في بعض طرق الحديث أنه قال: والله ما قيل لنا هذا في الجاهلية، فكيف بعد أن أعزنا الله بالإسلام، وقع ذلك في حديث ابن عمر عند الطبراني. وفيه ابتداء الكلام في الأمر المهم بالتشهد والحمد والثناء وقول أما بعد. وتوقيف من نقل عنه ذنب على ما قيل فيه بعد البحث عنه. وأن قول كذا وكذا يكنى بها عن الأحوال كما يكنى بها عن الأعداد، ولا تختص بالأعداد. وفيه مشروعية التوبة، وأنها تقبل من المعترف المقلع المخلص، وأن مجرد الاعتراف لا يجزئ فيها. وأن الاعتراف بما لم يقع لا يجوز، ولو عرف أنه يصدق في ذلك، ولا =

= يؤاخذ على ما يترتب على اعترافه، بل عليه أن يقول الحق أو يسكت. وأن الصبر تُحمد عاقبته ويغبط صاحبه. وفيه تقديم الكبير في الكلام. وتوقف من اشتبه عليه الأمر في الكلام. وفيه تبشير من تجددت له نعمة، أو اندفعت عنه نقمة. وفيه الضحك والفرح والاستبشار عند ذلك. ومعذرة من انزعج عند وقوع الشدة، لصغر سن ونحوه. وإدلال المرأة على زوجها وأبويها. وتدريج من وقع في مصيبة فزالت عنه لئلا يهجم على قلبه الفرح من أول وهله فيُهلكه، يؤخذ ذلك من ابتداء النبي ﷺ بعد نزول الوحي ببراءة عائشة بالضحك، ثم تبشيرها، ثم إعلامها ببراءتها مجملة، ثم تلاوته الآيات على وجهها، وقد نص الحكماء على أن من أشتدّ عليه العطش لا يُمكّن من المبالغة في الرّي في الماء، لئلا يفضي به ذلك إلى الهلكة، بل يجرّع قليلًا قليلًا. وفيه أن الشدة إذا اشتدت أعقبها الفرج. وفضل من يفوض الأمر لربه، وأن من قوي على ذلك خفّ عنه الهم والغم، كما وقع في حالتي عائشة قبل استفسارها عن حالها وبعد جوابها بقولها: والله المستعان. وفيه الحث على الإنفاق في سبيل الخير، خصوصًا في صلة الرحم. ووقوع المغفرة لمن أحسن إلى من أساء إليه أو صفح عنه، وأن من حلف أن لا يفعل شيئًا من الخير استحب له الحنث. وجواز الاستشهاد بآي القرآن في النوازل، والتأسي بما وقع للأكابر من الأنبياء وغيرهم. وفيه التسبيح عند التعجّب واستعظام الأمر. وذم الغيبة، وذم سماعها، وزجر من يتعاطاها، لا سيما إن تضمّنت تهمة المؤمن بما لم يقع منه، وذم إشاعة الفاحشة، وتحريم الشك في براءة عائشة.=

= وفيه تأخير الحد عمن يخشى من إيقاعه به الفتنة. وفيه منع الحكم حالة الغضب، لما بدا من سعد بن معاذ وأسيد بن حضير وسعد بن عبادة من قول بعضهم لبعض حالة الغضب حتى كادوا يقتتلون، فإن الغضب يخرج الحليم المتقي إلى ما لا يليق به، فقد أخرج الغضب قومًا من خيار هذه الأمة بحضرة رسول الله ﷺ إلى مالا يشك أحد من الصحابة أنها منهم زلّة. ويؤخذ من سياق عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا جميع قصتها المشتملة على براءتها بيان ما أجمل في الكتاب والسنة لسياق أسباب ذلك، وتسمية من يعرف من أصحاب القصص لما في ضمن ذلك من الفوائد الأحكامية والآدابية وغير ذلك. فتح الباري، ابن حجر: (٨/ ٤٧٤ ــــ ٤٨٢) بتصرف يسير. وقد قدمته مع تأخر زمانه لاحتواء فتحه على جلّ فوائد من سبقه رحمهم الله.

وقال ابن بطال رَحِمَهُ اللَّهُ: وفى حديث الإفك من الفقه: تشكّي السلطان والإمام بمن يؤذيه فى أهله وفى غير ذلك إلى المسلمين والاستعذار منه. وفيه فضيلة من شهد بدرًا من المسلمين، وأن الدعاء عليهم مما يجب أن ينكر كما أنكرته عائشة على أم مسطح في ابنها مع ما للأبوين من المقال مما ليس لغيرهما. وفيه أن النبي ﷺ لم يكن يأتيه الوحي متى أراد، لبقائه شهرًا لا يوحى إليه. وفيه ترك حدّ من له منعة، والتعرض لما يُخشى من تفرّق الكلمة وظهور الفتنة، كما ترك النبي ﷺ التعرض لحدّ عبد الله بن أبيّ بن سلول. وفيه غضب المسلمين لعرض إمامهم وسلطانهم. وفيه أن الشبهة تُسقط العقوبة كما سقط الحدّ. =

= وفيه أن من آذى رسول الله ﷺ في أهله أو في عرضه أنه يقتل؛ لقول أسيد: إن كان من الأوس قتلناه، ولم يردّ عليه النبي ﷺ شيئًا، فكذلك من سبّ عائشة بما برأها الله منه، أنّه يقتل لتكذيبه القرآن المبرئ لها وتكذيبه الله ورسوله. وقال قوم: لا يقتل من سبّها بغير ما برأها الله منه قال المهلب: والنظر عندي يوجب أن يُقتل من سبّ أزواج النبي ﷺ بما رميت به عائشة أو بغير ذلك؛ لأن قول أسيد: إن كان من الأوس قتلناه، إنما قال ذلك قبل نزول القرآن، ولم يرد النبي ﷺ قوله، ولو كان قوله غير الصواب لما وسع النبي ﷺ السكوت عنه؛ لأنه مفروض عليه بيان حدود الله، ومن سبّ أزواجه ﷺ فقد آذاه وتنقّصه ،فهو متّهم بسوء العقيدة فى إيمانه بالنبي ﷺ، فهو دليل على إبطانه النفاق. وفيه معاقبة المؤذي بقطع المعروف عنه. وفيه الأخذ بالعفو والصفح عن المسيء، وأن ذلك مما يغفر الله به الذنوب. شرح صحيح البخاري، لابن بطال: (٨/ ٤٢ ـ ٤٤) باختصار مع حذف المكرر قدر الطاقة.

ومن الاستنباطات المذكورة في عمدة القاري للعيني باختصار: جواز رواية الحديث عن جماعة عن كل واحد قطعة مبهمة منه، وإن كان فعل الزهري وحده فقد أجمع المسلمون على قبوله منه والاحتجاج به. وفيه عدم وجوب قضاء مدة السفر للنسوة المقيمات، وهذا مجمع عليه إذا كان السفر طويلًا، وقال النووي: وحكم السفر القصير حكم الطويل على المذهب الصحيح. وفيه جواز لبس النساء القلائد في السفر كالحضر. وفيه أن من يركب المرأة على البعير وغيره لا يكلمها إذا لم يكن محرماً إلا=

= لحاجة لأنهم حملوا ولم يكلموا من يظنونها فيه. وفيه فضيلة الاقتصاد في الأكل للنساء وغيرهن ولا يكثرن منه، بحيث يهبلهن اللحم. وفيه جواز تأخر بعض الجيش ساعة ونحوها لحاجة تعرض لهم. وفيه استحباب الاسترجاع عند المصائب، سواء كانت في الدين أو في الدنيا، وسواء كانت في نفسه أو من يعزّ عليه. وفيه تغطية المرأة وجهها عن نظر الأجنبي سواء كان صالحًا أو غيره. وفيه جواز الحلف من غير استحلاف. وفيه أنه يستحب أن يُسَرّ عن الإنسان ما يقال فيه إذا لم يكن في ذكره فائدة كما كتموا عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا هذا الأمر شهرًا ولم تسمعه بعد ذلك إلا بعارض عرض، وهو قول أم مسطح: تعس مسطح. وفيه استحباب ملاطفة الرجل زوجته وحسن معاشرتها. وفيه أنه يستحب للمرأة إذا أرادت الخروج لحاجة أن يكون معها رفيقة لها لتأنس بها ولا يتعرض لها. وفيه كراهة الإنسان صاحبه وقريبه إذا آذى أهل الفضل أو فعل غير ذلك من القبائح، كما فعلت أم مسطح في دعائها عليه. وفيه جواز التعجب بلفظ التسبيح. وفيه جواز البحث والسؤال عن الأمور المسموعة لمن له بها تعلق وأما غيره فمنهي عنه وهو تجسس وفضول. وفيه خطبة الإمام الناس عند نزول أمر مهم. وفيه فضائل ظاهره لصفوان بشهادة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بما شهد، وبفعاله الجميلة. وفيه المبادرة إلى قطع الفتن والخصومات والمنازعات. وفيه تفويض الكلام إلى الكبار دون الصغار لأنهم أعرف. وفيه براءة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا من الإفك وهي براءة قطعية بنص القرآن فلو تشكك فيها إنسان صار كافرًا مرتدًّا بإجماع =

= المسلمين. وفيه تجديد شكر الله تعالى على تجدد النعمة. وفيه فضائل لأبي بكر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ في قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ ﴾ [النور: ٢٢]. وفيه استحباب صلة الأرحام وإن كانوا مسيئين. وفيه استحباب الصدقة والإنفاق في سبيل الخيرات. وفيه استحباب لمن حلف على يمين فرأى غيرها خيرًا منها أن يأتي بالذي هو خير ويكفّر عن يمينه. وفيه فضيلة زينب أم المؤمنين رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا. وفيه التثبّت في الشهادة. وفيه أن الخطبة مبتداة بالحمد لله والثناء عليه. وفيه جواز سبّ المتعصب لمبطل كما سب أسيد بن حضير سعد بن عبادة لتعصبه للمنافق وقال: إنك منافق تجادل عن المنافقين، وقد ذكرنا أنه لم يرد به النفاق الحقيقي. وفيه جواز تعديل النساء، لأنه سأل بريرة وزينب عن عائشة وهما من أخبرتا بفضلها وكمال دينها، وبه احتج أبو حنيفة في جواز تعديل النساء بعضهن بعضًا. وفيه جواز تحلي النساء بالذهب والفضة واللؤلؤ والخرز ونحوها. عمدة القاري، للعيني: (٢٠/ ٣١٤ ـ ٣١٧) مختصرًا.

والحمد لله على تمام فضله، وعميم نواله، وجليل إنعامه، والصلاة والسلام والبركة على نبينا محمد وآله وصحبه، ومن تبعهم بإحسان.